

الفصل الثاني

دراسات حول شعره

- إبراهيم عزت الذي لم أعرفه
الشيخ / عبد السلام البسيوني
- شعر إبراهيم عزت (دراسة وتقويم)
د. حسن عبد السلام
- إبراهيم عزت - شاعر الدعوة والوطن.
الشاعر / عبد الله رمضان.
- مع إبراهيم عزت وطيف الملحمة
حوار أجراه د. أكرم رضا مع المنشد (أبو مازن).

* * *

إبراهيم عزت الذي لم أعرفه

الشيخ عبد السلام البسيوني

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على حبيبي سيد الأولين والآخرين،
وآله وصحبه:

(1)

وكنت مخطئاً !

قبل أكثر من ثلاثين سنة كانت الساحة الدعوية المصرية تمور بالجماعات
والتيارات التي حملت أفكارًا متلاطمة، وأحدثت نوعًا من الحراك الديني الفكري
والاجتماعي والسياسي - سلبًا وإيجابًا - لا تزال نجد آثاره، ليس في مصر وحدها، بل
في العالم كله. ولم يكن بد من أن تعثر في طريقك - مهما أردت استقلالاً - بشباب من
السلفيين أو الإخوان أو التبليغيين أو الجمعية الشرعية أو أنصار السنة، أو الهجرة، أو
غيرهم: يكلمك، أو يفيدك، أو يستنصحك، أو يستفزك، أو حتى يكفرك.

كما حفلت الساحة أيامها بأسماء علماء كبار مؤثرين، من أمثال أساتذتنا
الأجلاء: القرضاوي، والغزالي، والشعراوي، وصلاح أبو إسماعيل، وابن باز، ومحمد
قطب، ومحمد بن إسماعيل، وعبد اللطيف مشتهري، وصفوت نور الدين، وغيرهم
من الأعلام.

ومما تنهى لمسمعي آنذاك: اسم رجل، كان يتكلم عنه من يتكلم بكثير من التوقير
والإعزاز، هو الشيخ إبراهيم عزت عليه وعليهم رحمات الله ورضوانه، فطالما لهج
الشباب بلطف منهجه، وحلاوة منطقه، ونفرد خطبه، ورفقه، وافتتان بعضهم به،
واجتماعهم عليه في جامع أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه.

وعلى اختلاف آراء الشباب وأنظارهم في بعض الأساتذة، وجرأتهم على تنميط

وتصنيف الدعاة، ووضعهم في زوايا حادة، لم أسمع من أحد منهم فيه قدحًا، ولا انتقاصًا، كعادة الشباب المتحمس كل زمان ومكان.

ولأنني - منذ وجهني الله تعالى وجهة الاستقامة - كنت قد اختطت لنفسي منهجًا ألا أتعصب للافتة، ولا جماعة، ولا لشيخ، لكثرة ما رأيت الشباب يتعاملون، ويسيوون، ويأكلون من لحوم العلماء وأعراضهم، لم تنهزني همتي لألقى الشيخ رحمه الله تعالى، أو لأتعرّف إليه، ولم يدر بخلدي قط أنه سكنني، وتربع في قلبي، وورزقني الله حبه، من حيث لا أدري ولا يدري!

(2)

أبو مازن

كنت آنذاك قد أحببت منشدًا من الشام دارت حوله أقاويل كثيرة، وكنت ولا زال أعدده واحدًا ممن صنعوا - على غير توقع منه - نوعًا من الانبعاث واليقظة العجيبة في نفوس الشباب آنئذٍ، إذ جعلهم - بأناشيده - يتمثلون الكثير من المعاني الروحية والإسلامية العالية، كالعزة والبذل وحب الله تعالى، خصوصًا وأنه كان يتقي أناشيده من كتابات كبار شعراء ومفكري الأمة، أمثال عمر بك الأميري، وهاشم الرفاعي، ويوسف العظم، ومحمد منلا غزيل، وجمال فوزي، وعبد الحكيم عابدين، وسيد قطب، والرافعي، وإقبال، والقرضاوي، وحماد، والباقوري، وغيرهم.

ولفت نظري حينها أن بعض القصائد التي أنشدها، كانت فريدة في صياغتها وفي لغتها، لأنها - على غير المألوف في النشيد الإسلامي - من شعر التفعيلة، وكانت قصصية الطابع، طويلة النفس، مشحونة بالعاطفة والشجن؛ لهذا كانت أشد جذبًا لطبيعتي، التي تطرب للصورة والكلمة، من غيرها من القصائد.

وتشغلنا الأيام، ويمر أكثر من ثلاثين عامًا، وألتفت حولي لأرى أنني وجيلي لا نزال منبهرين بصوت أبي مازن، الذي جسّد ظاهرةً فذة في زمنه وما بعده زمنه، رغم خروج عشرات المنشدين بعده، ورغم اهتمامي بالإنشاد، وكتابتي لعدد كبير من

القصائد التي أنشدت وأذيعت، وانتشرت عبر الكاسيتات، في منطقة الخليج، دون أن يهزني منهم أحد، أو يؤثر فيّ كما أثر أبو مازن!

أكرم رضا

ولأقدار الله دوما تصاريف، وكان من قدرتي ألا يقَرَّ الفؤاد؛ فقد زارنا في تلفزيون قطر الأخ الجميل الباحث المتوقد المشاكس الدكتور أكرم رضا، وهمس في أذني بأمرين، أدخلنا على نفسي بهجة عظيمة، أولهما أن أبا مازن موجود وبخير، وأنه قابله، وحاوره، وأثار ثانيةً موهبته، حتى إننا نستطيع الاتصال به، ونستمع له، من خلال برنامجنا التلفزيوني «تنوير»، الذي كان آنذاك يعرض في تلفزيون قطر.

وثاني الأمرين أنه مهتم بديوان الشيخ إبراهيم عزت رحمه الله، الذي أنشد بعضه أبو مازن، يريد أن يخرج للنور، ويعيد طبعه في ثوب جديد.

وسألته: وهل كان الشيخ إبراهيم عزت شاعرًا؟ معقول؟!

وألقي د. أكرم - الله يسامحه - في وجهي ما جعلني أقفز: شاعر؟ «إنت ما تعرفش؟ دا انت نايم بأه! هو اللي كتب: مصعب بن عمير / وبعد / اليوم عيد / حبيتي بلادي / يا رسول الله جئنا / ببابك لن أغادره / الله أكبر، وغيرها من الروائع!»

ولا أخفي سرًّا إذا قلت إنني عندها قد ثارت في نفسي غيرة من الدكتور أكرم، وأبيت إلا أن أنازعه هذا الخير، وأشاركه شيئًا من أداء الواجب، وخدمة هذا الرجل المبارك، فتصرف بطريقة لئيمة، وهددته: فإما أن يعطيني فرصة خدمة الديوان، وضبطه، وتصحيحه، أو أشكوه للجامعة العربية، وكوفي أنا، وحظًا بط كوندوليسا - وطبعًا النظام العالمي الجديد بيتلِّكك - فلما رأى جدية تهديدي، وهو يعلم من هي كوكي⁽¹⁾، خاف المسكين على نفسه من «تورا بورا وأبو غريب واللي ما يتسماش

(1) يقصد كونداليزاريس وزيرة خارجية أمريكا.

الثالث»⁽¹⁾ وقال: حلال عليك، وربنا يهنيكم ببعض، وكانت فرصتي الماتعة، لأتعامل مع الشيخ الشاعر الداعية الرباني المرابي المحلق الثابت الشفيف الرقيق المدهش الرائد السباق المتميز العاشق الفنان؛ أحسبه والله حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا.

(3)

وسطية المنهج

اسمح لي قارئى المبارك أن أزعم أن هذا الشيخ عليه رحمت الله قد ترك فراغًا في العقل الوسطي المتوازن للصحوة، لم يملأه غيره، وأن أزعم كذلك أن مصر كانت في حاجة شديدة له ولأمثاله، لتخرج من دوامات الدم والعنف والقهر والطوارئ والمطاردات والمعتقلات، فقد كان الشيخ رحمه الله تعالى يعتمد الرفق منهجًا، والدفء بالتي هي أحسن أسلوب دعوة، ولعل هذا هو الدواء لمثل هذا الجنون، الذي أضر بمصر وأهلها - ولا يزال - أيها إضرار.

(4)

ملاح شعره

واسمح لي قارئى المبارك أيضًا أن أزعم أنه ترك فراغًا في بنيان الشعر، يحتاجه صوت الدعوة، فقد بقي الشعراء الإسلاميون المعاصرون للشيخ - في جملتهم - دون الأحداث تعبيرًا وتكنيغًا، ولا تزال قصائد كثير من مشاهيرهم تمر على السمع، فيزلقها لا يعيرها التفاتًا؛ لأنها مرت على الأذن ألف مرة من قبل؛ ألفاظًا وصورًا وبلاغة.

أما هذا الشاعر فقد اختار لنفسه - ومن ستينيات القرن العشرين - أسلوبًا شعريًا، يعتمد الكلمة الراقية والقريبة التي لا تحوجك لمعجم، والطرح القصصي الذي يشدك من المبتدأ للمنتهى، والصورة الفنية الجديدة على الذهنية الإسلامية، فهو الذي

(1) يقصد معتقل جوانتانامو الأمريكي في كوبا وهو أحد السجون الأمريكية لأمثالي وأمثاله.

اخترع تعبيرات أنيقة، بليغة في فنيتهَا ومحتواها الشعوري، مثل:

- ونحن نرتدي الرضا.. ونصنع ابتسامنا من ذكره..
 - حين تعصرُ اليدانِ صرخةً على القيود..
 - النظرةُ المعقوفةُ الشعاع تقتل الأمانَ في العيون..
 - شريكةُ الأسي بدا جناحُها الكسير..
 - سترتدي الصقيع؛ كي تقدمَ الحياةَ للرضيع..
 - في الليلة التي بكى بها الحصى من شهقة الدماء..
 - الهولُ يا لقسوته: محافلٌ تضم ألفَ سوطٍ.. والموت قادمٌ يدوس فوق موت..
 - واهتز قلبي الذي قد هدته العذابُ / أحسستُ رعشةً بجسمي الذي يخاف غضبة الكلاب / وجاء ضعفي الكريهُ جاء / عرفته في كل لحظة من الضنى قد عشتها / أتى يقدم الرجاء!
- ونحو ذلك من التعبيرات البليغة الجديدة.

ولا شك أن طرح مثل هذه المعاني سنة 65، 66، 67 لم يكن أمرًا مألوفًا في قاموس الشعراء الإسلاميين، لذا كان هذا الرجل - في زعمي - رائدًا سباقًا.

ولولا انشغاله الكثيف بالدعوة، ومضي قدر الله تعالى فيه شأنًا، لكان له والشعر شأن آخر؛ ولا استطاع أن يصنع مدرسة أدبية إسلامية المنهج، تنافس وتتفوق في فنياتها وتطورها، بل تلغي كثيرًا من الشعراء «المنافخ» الذين كانوا يظنون أن الإبداع لا يمكن أن يقارنه التزام ولا تدين، وأنه دائماً «حاوِدُ شمال»!

الإطار الدعوي:

لذا فإنني أتمنى عليك قارئى المبارك - لتدرك كم كان إبراهيم عزت إضافة حقيقية للدعوة والشعر والأدب - أن تضعه في إطاره الدعوي - وشعره هذا كله في الستينيات، حين كان كثير من الإسلاميين الدعاة أسارى زنازين باردة ومظلمة وكئيبة - لترى كم كان قوياً في يقينه، وفي آماله، وكم كان يبث في قلوب السائرين الثقة بالله تعالى، والثقة بالانتصار، والثقة بالمستقبل.

المرحلة التاريخية:

ضعه في مرحلته التاريخية، التي خرسست فيها الألسنة، واكتظت بأهل الدين السجون، وعز التعبير الحر، وقصفت الأقلام، وحوصرت العقول، ولم يكن يسمح إلا بالتسييح بحمد اتجاه واحد لا ثاني له، وتعظيم رجل أوحده، لا شريك له، وحيث هتف بعضهم معزوفات من الردح والتجريس الاشتراكي من نوع: «هانز مَرْمَرُكَ كِدْهُ، ونطبلُك كِدْهُ، ونقول لك: يا عديم الاشتراكية!» ثم تأمل كم كان قلب الشاب إبراهيم عزت حديداً؟!، وكم كان جنانه ثابتاً؟!، وكم كان حرّاً لا يقبل الضيم، عزيزاً لا يرضى بالذلة، مستعصماً بالله تعالى، مستعلياً بإيانه، في مواجهة تياسة وهيافة الاشتراكية، (اللي بتزمر كِدْهُ!)

مرحلته الشعرية:

ضعه قارئى الكريم في مرحلته الشعرية، حين كان أكثر الإسلاميين يتهيبون التطوير، وينفرون من شعر التفعيلة⁽¹⁾، ويرونه مروفاً على الشعر، وخروجاً على اللغة والأدب، وأنك لكي تكون شاعراً ينبغي أن تكتب عن القلب والرشا، والليل الذي ينوء بكلكله، وعن القوام السمهري، والدعص والكثيب، وعيون المها / البقر «ومش عارف ازاى تكون عيون البنات زي عيون البقر المعمصمة، وتنحب!» ثم يأتي هذا الشاب الإسلامي التوجه، ليتبنى أسلوباً في التعبير الشعري، كاد يتفرد به آنذاك شعراء

(1) لم يكن الإسلاميون فقط يتهيبون هذا النوع بل كثير من الشعراء.

اليسار: صلاح عبد الصبور وأمل دنقل والشرقاوي والخميسي وحجازي وغيرهم. ألم يكن إبراهيم عزت - إسلامياً - رائداً واعدًا، ومجدداً متفرداً؟!

(5)

منابع رؤيته الشعرية

تشكلت رؤية إبراهيم عزت الشعرية من خلال منابع كثيرة كان أهمها في رأيي

أمرين:

أولهما: تنقله بين عدة تيارات ومدارس دعوية؛ مما أكسبه نوعاً من السباحة، واللين، والبعد عن العصبية، والرغبة في تأليف القلوب؛ فقد نهل الشيخ أول ما نهل من بيته الصعيدي المحافظ، الذي أورثه نفحة من التصوف، ومن عمله مديعاً ومعدداً للبرامج الدينية والأدبية في التلفزيون والإذاعة المصرية - وهذا يحتاج إلى قراءة وثقافة - ثم تنقله بين الشبان المسلمين والإخوان المسلمين والتبليغ، مما حباه رؤية متسامحة، وأفقاً متسعاً، ولساناً مقنعاً، وانتباهاً لكثير من المزالق والمطبات التي يسقط فيها من لم يجمع مثل هذه الخبرة.

وأنا مؤمن إيماناً جازماً أن من نوع مصادر تلقيه، وفتح للحق عينيه، وبحث عن الصواب بإخلاص نية، دون تشنج، ولا تطاول، لا بد أن يتسع أفقه، ويتسامح منهجه، وأعتقد أنه ما صار أمير المؤمنين البخاري عظيمًا، إلا لأنه درس على ألف وثمانين شيخًا، كما ورد في تراجمه.

وثاني المنابع: تعرضه لتعذيب شرس؛ طالما تحدث عنه في أثناء ديوانه، متنقلاً بين حالات نفسية، تجعلك تنحني له إكباراً، فلم يكن استعراضياً عنصري النزعة، يصنع أساطير حول نفسه أيام السجن والتعذيب، بل لم يستنكف أن يتقلب بنا في أحوال المعدب؛ من ضعف وقوة، ومن خور واستعلاء، لم ير بذلك بأساً، ولم يعده منقصة، وهذا ما يكسب شعره صدقاً وواقعية مغلقة بصوره القوية.

انظر إليه، ونفسه تؤامر على نفسه، وضعفه البشري يبتزه ويضغط عليه، وآلام

التعذيب تساومه على الانحناء، وهو يقول:

واهتز قلبي الذي قد هدّه العذاب / أحسست رعشةً بجسمي الذي يخاف غضبة
الكلاب / وجاء ضعفي الكريه جاء / عرفته في كل لحظة من الضنى قد عشتها / أتى
يقدم الرجاء / تعلقت عيناه بالجواب!

واستعد معه ذكريات المسلمين الأوائل، الذين آدهم⁽¹⁾ التعذيب، وأثقلهم
الاضطهاد الوحشي الأعمى، فجاءوا يشتكون إلى رسول الله ﷺ أن يستنصر الله تعالى
لهم، إنه يرفع شكواه لمولاه - مستعجلاً - لطول ما عانى وأوذى في الله:

سألت خالقي: لمن تركتنا؟ / سألت خالقي إلى متى / ستطعم الكلاب ما
وهبتنا؟ / الهول؛ يا لقسوته / محافلٌ تضم ألف سوط / والموت قادمٌ يدوس فوق
موت!

ثم يستعلي - وهذه أغلب حالاته - على ضعفه الإنساني وجراحاته، وعلى
مصاعب الطريق، فيهتف:

عائداً أنا من حيث أتيت / عائداً أنا لمسجدي / عائداً إلى الصلاة والركوع
والسجود / عائداً إلى الطريق خلف أحمد الرسول / أطلق الخطى حثيثةً في إثره /
عرفت قصة الطريق كلها / وعائداً أنا برغمها / كالفجر، كالصباح..

لذلك فإنك ستجد تنوعات نفسية ووجدانية عديدة، ماثوثة هنا وهناك، عن
التعذيب والجلادين، وعن صبره وتماسكه، وتثيته لوالديه وأحبته - ثقة بموعد الله
تعالى، وبقيناً بالظفر - ولن تحطى عينك الثاقبة أيها القارئ الكريم هذه الملامح، وأنت
تجوس خلال الديوان الصغير الكبير.

ويكاد يغلب على الديوان أيضاً - وربما كان هذه خصيصة تلاحظ في القصائد -

(1) لم أعرف معناها أول الأمر، ولما سألت البسيوني عنها قال: وأنت مالك.. عجائب! - أكرم.
وهي على كل حال من آده الحمل إذا أكرته، وثقل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا﴾ - البسيوني.

الروح الدينية العالية، والحب العظيم لله تبارك وتعالى، ورسوله ﷺ - في غير تكلف ولا ادعاء - ويتجلى ذلك في ألفاظه وتعبيره، في عدد من القصائد، وحسبك أن تقرأ: باباك/ يوم الحبيب ﷺ/ يا رسول الله جئنا / دعاء، لتلحظ ذلك في غير ما عناه.

(6)

إحساس الشاعر بالنكسة:

من حيث التاريخ نلاحظ أن أهم قصائد الشيخ رحمه الله انطلقت بين 1965، 1967، وأن أكثرها وأهمها - من وجهة نظري - كُتبت سنة 66، قبل النكسة بعام، وحين كان التعذيب وجباتٍ يومية توزع على المساجين بالخط، أو بالهوى!

ومن حيث الموضوع نلاحظ أن الشيخ رحمه الله بدأ الديوان بالأهم في وجدانه فالمهم، فوضع قصيدة (الله أكبر) في المقدمة، ثم قصيدة (أمي)، ثم (أبي)، ثم (صغيرتي)، ثم خاطبهم مجتمعين في قصيدة «زيارة» ثم بعد ذلك وضع القصائد بترتيب مختلف، استأثر فيه رسول الله ﷺ بقصائد حب من نوع خاص، فاقراها لتكتشف أنه مسكون سيدنا المصطفى ﷺ، مفتون به إنساناً ومعلماً وقُدوة، ورسولاً ﷺ، يعبر عن ذلك أحياناً في إبهاءات صوفية النزعة، لكنها صوفية راشدة، بعيدة عن التكلف والإغراب، وعن الشذوذ والادعاء.

فهو يأخذ من بعض المفاهيم رقتها، ومن بعض الألفاظ حميمتها، دون أن يجعلك تظن أنه درويش، أو مجذوب يلبس الخرقه، ويهذي في الشوارع، بل هو اليقظ دائماً، المحب دائماً، الطموح دائماً، الراضي دائماً، الساعي للتغيير دائماً؛ حتى وإن استخدم ألفاظاً مثل: المقام والأعتاب والسوى والعشق والشوق والوجد والوصال والأنس والذوب والكأس والمريد...

وحاول إن استطعت - ولن تستطيع - أن تجد هذه الألفاظ في موطن يجرح التوحيد، أو يُغيب العقل، أو يُسيء للعلم والاتباع، وقرأ معي هذه المواضع:

يقول في قصيدة أمي:

يا نفس: كفي عن سواه لتلزمي أدب المقام بساحة الإيمان

وفي أرجوزته: دعاء، نراه يقول:

أنت الذي أسريت دفئك في دمي
فبدت ملامحه ترقرق في فمي
فنطقت باسمك داعياً وملبياً
وجرى اللسان بما أفضت مناجيا
فجرت دموعُ العاشقين مهابةً
وبكيت من فيض العطاء إنابةً
وعرفت طعم الشوق.. ذقت جلاله
لما التقيتُ بمن مُنحت وصاله
فهنالك - من بين الوجوه - عرفتهم
كالدر في بحر الحياة نثرتهم
السر فيهم لا يراه الناظرُ
لكنها هو للبصيرة ظاهرُ

وفي قصيدته «كلنا مسافر» يقول:

زاد الضنى حتى شقيتُ بغيرتي ففزعت للرحمن أشكو وحشتي
فعرفت أنسًا لا يُنالُ بغيره ونعمتُ بالشوق الحبيب لنوره
ياليت كل الحائرين تفكروا الخير يدعوننا إليه فشمروا

وفي قصيدة لحظة الوصال يقول:

بعض الندى أو قطرة من المطر / تردُّ قصة الحياة / حتى يحين موعدي مع اللقاء /
وعند ذاك سيدي / سينتهي السؤال / نذوب سيدي / في لحظة الوصال.

وفي قصيدته «يوم الحبيب ﷺ» تظهر هذه النفحة جلية، وإن خفت منها شكواه

مرارة الواقع، وحرد⁽¹⁾ الكفر، وغلبة الباطل على الإسلام والمسلمين . انظر إليه
يقول :

بالباب أَرْسَلْ أَهَاتِي مَعذِبَةً
إِنَّا بِأَعْتَابِكُمْ نَشْكُو.. أَجِيبُونَا
يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ: وَجَدُّ فِي الْقُلُوبِ سَرَى
فاسترسل الشوق يعصرنا، ويطوينا
يا سيد الخلق: فامسح غلةً ظمئت
والحب من كأسكم يروي ويرضينا
لا شيء نملكه إلا محبتكم
نرجو بهنا نسباً.. بين المريدينا

لا أعتقد أن في طرح الشيخ الرقيق المفعم بالحب لله تعالى ورسوله ﷺ شيئاً مما
يمجه ذوق الموحد، أو يرده طبعه، بل إنه هذا حذو علماء أجلة كابن تيمية، وابن
القيم، والحافظ الذهبي وغيرهم - عليهم رحمة الله تعالى - في استخدام مثل هذه
الألفاظ بمقادير متوازنة، خصوصاً أننا في زمن نشكو فيه جفاء بعض الطباع، وغلظة
بعض القلوب!

(7)

خصوصيته الشعرية

لقد فاجأتني قصائد الشيخ رحمه الله تعالى، واندهشت أنها له، ولفت نظري ما
يتمتع به من نفس طويل، ولغة تسبق زمنه، تغلفها البساطة والوضوح، كأنها أشبه
بسهل يتمتع على من لا يملك مثل ذوقه وشاعريته، يؤطر⁽²⁾ ذلك كله « رومانسية

(1) حرد: قصد، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَيَّ حَرْدًا قَدِيرِينَ﴾ [القلم]، أي على قصد وقيل على منع،
والحرد بالتحرير: الغضب.

(2) من الإطار والإحاطة .

دعوية « معجبة؛ إذا صح التعبير.

عش معي وانظر ما أروع الشاعرية، وما أبدع الصور، وما أرق الأداء، وما أحلى التعزي، وأجمل السلوان، في قصيدته زيارة:

على مشارفٍ تظل ألفَ يومٍ / ونحن نرتدي الرضا / ونصنع ابتسامنا من ذكره /
ونرقب الحياة من بعيدٍ / في جزيرةٍ ببحره / تفتحت قلوبنا على نوافذ الخلود /
تنفست زَفْرَاتنا في واحة السجود / الكفُّ حينما يصيبها الضنى / تمد بالرحيق / حين
تعصر اليدان صرخةً على القيود / والعينُ حينما يشدها الشroud / تردها عينان عائدتان
من حدائق الصمود / والقلب حينما يزوره الأسى / تضمه في بُردة الأمان بسمةُ
الشهيد / الصبر يعرف الجميع / رافق الخطى على الطريق / والحقُّ بيننا / وصية
الصديق للصديق.

الله الله أيها الشاعر الجميل!

ولم يكن التعزي وحده هو زاده، بل لقد امتلك ما هو أقوى، وما هو أسدُّ، وما هو أشدُّ؛ لقد تحلى بالثقة المطلقة بالله، والهزء مما يعانيه في سجنه، وكانت فلسفته التي تهون كل شيء مما يعاني، رضاه بموعد الله تعالى:

لا تحزني مما يقال عن الجراح
وما يقال عن الذي أضناني
فالجرح يبرأ بالمساء، وفي الصبا
ح لنا من الرحمن خَلْقٌ ثانٍ
لا تفرغي؛ إن رق ثوبي في الشتاء
مع الأسى.. ونحولة الأبدان
فالقلب يدؤه إلى الله انتهاء
منه تذكرو جَذوة الإيمان
لا تحزني إن كان زادي معدماً
فالجوع يقهر سطوة الشيطان

والزاد ما نلقاه في يوم الزحاه
م غداة تُزَلَّفُ جنَّةُ الرضوانِ

وفي قصيدته: (فلنطلق ابتسامنا في ليلة العزاء)، يقول في ثقة مستعلية:

لم تفلح الجدرانُ والقضبانُ / لم يفلح السجنانُ والسلطانُ / فنبعنا يمدنا
بزادنا / والواحد القهار أمنا.. ملاذنا / يا حسبتنا / يا حسبتنا / مفاتحُ للغيب لا
تُرى تفيض بالعطاء / تقدم الغذاء والدواء والكساء / تحبى الهناء!

وفي قصيدة (الأم) يقول:

فلم تزل مزاهرُ الحياة في القلوب / يصونها من الضياع أن ربها كبير / وأنا
بركنه الشديد نستجير / وأنا بظله الحبيب نحتمي / وفي رياض وعده الوفي
نرتمي / وإنه لحق / البيع رابع.. ورابع!

ويقول في القصيدة نفسها:

غد لنا.. غد لنا / ونحن في مواقع الخلود نتنظر / فلتحكموا السفنُ / لأنَّ
بحرنا عميقُ / واستكثروا من زادنا الأصيل / فلم تزل بعيدةً نهايةً الطريق /
لكنَّ نبعنا الرطيب مغدقُ / ولم يزل يبلى الظما / ويطفئ الحريق!

ويرى أنه لا بد من تضحية، ومن عطاء لهذا الدين؛ حتى ينهض، ويستعيد مكانه
ومكانته، يقول في قصيدة (الأم):

فلم تزل أقدارنا تقول: / لا بد يا أحبتي من الأم / ليسقط الكسيح / لينتهي
تراقص الذبيح / ليختفي في قسوة النيران / مرهفُ الطلاء والخبث / ليهتف
الجميع: / الموت للعبث / ليستبد بالمرأوغ القلق / ليهداً الشهيد إن صدق!

وفي قصيدته (لا تذكر الحياة) يقول باعثاً الأمل في النفوس:

لكن رعدةً هناك خلف حمرة الشفق / تُنبئُ الغريب عن أمل / فلنرتقب /

فلنرتقب!

الرؤية

ولقد اهتم الشيخ - رحمه الله تعالى - بتنويحات في قصائده، يقدم من خلالها رؤيته للواقع وللمستقبل، ولطبيعة الدعوة؛ فقد كان ذا أمل دائم في النصر، ثقة بالله تعالى، يقول في «زيارة»:

سنلتقي بإذنه / في دارنا.. في كل دار / وسوف يُقهر الضنى / في جوف ليلٍ
أو نهار / ونحن نرتدي الرضا / ونصنع ابتسامنا من ذكره / ونرقب الحياة من بعيد.

وهو يدعو إلى اليقظة، والانتباه للشعارات الخادعة، والألفاظ الحلوة التي تحمل في أثنائها الموت، وترفض النور والطهارة؛ انظر إليه في قصيدته: (عذابنا)، وهو يقول في سخرية سوداء ممرورة:

متى يموت قهرنا؟! / متى يثور سيدي بركاننا؟! / متى نلقب الأشياء
بالذي يوافق الأسماء؟! / ونصنع الحقيقة المقدسة؟! / حقائق الحياة كلها مزيفة
/ الخير شرٌّ مطبَّقٌ فمزقوا رداءه / والشر - في عوائه الكئيب - عادةٌ / يساق في
أعقابها المديح / إياك أن تحب خضرة الزروع / ما أجمل السواد! / ما أرقَّ بومهُ
/ ينوح فوق دارنا / ولتذبحوا الحمام / ولتقتلوا الأطفال / ولتتحرقوا الأزهار
كلها.

ولأنه يجب بلاده وناسه « كما يقول الصعايدة »، ولأنه يرى أن على المسلمين أن يرفضوا ما هم فيه من انكسار وهوان، فإنك تراه يستنخي ويستنهض أبناء الأمة، ويحرك عزائمهم، دون تبييس، ولا كسر للهمم:

والخطبُ أكبر من هُو نُقارفه والأمرُ أكبر من دعوى نناديها

جَدُّوا لأقدارها؛ فالهزلُ مقبرةٌ
 أنتم وقودٌ لحربٍ ضلَّ صانعها
 أبناؤنا طعمةٌ لليأس نُسلمهم
 ماذا نقول لربي؛ حين يسألنا
 ومن يجيب؟ إذا قال الحبيب لنا
 إن لم نردها لدين الله عاصفةٌ
 بهما سندفن أحياناً ونكيها
 يُجمَع الكيدَ كي يطوي غوافيها
 ضلت معاملهم؛ من ذا سيجلوها؟
 عن الشريعة لم (نحمي) معاليها؟
 أذهبتمو سنتي.. والله محيها
 سيذهب العرضُ.. بعد الأرض نعطيها

ومما يلاحظ في الديوان بقوة: إعلانه المتكرر استعدادَه للشهادة، وعدم مبالاته بها؛
 رغم العناء والتعذيب وقساوة السجنان، وبنبرة مستعلية، لتربح بيعته، وتُبارك تجارتُه:
 ففي قصيدة «زيارة» يقول:

لنطلقِ الخطى على الطريق / أقولها وأعرف الثمن / فلنتردِ الكفن / فالموت
 في رحاب طاعته / أحبُّ يا أحبتي / من انحناءٍ خفيفةٍ بغير ساحتِه!
 وفي قصيدة: (فلنطلق ابتسامنا)، يقول:

يا قرة العيون ساعةَ الجزاء / سنشترى الخلودَ بالفناء / فلنطلق ابتسامنا في
 ليلة العزاء.

وفي قصيدته «أبي» يقول مخاطباً أباه، مطالباً إياه بالتجدد:
 ولتقبل العزاء / بلا دموعٍ / فالحاسدون في انتظار دمِنا / كي يضحكوا
 من جرحنا.

وفي شهيرته «أسبح ربي» يقول:
 أبيعُ.. وربِّي مني اشترى
 وكنت بأُمسيي أخشى العيون
 وكنت أخاف حلولَ المنايا
 ولما طلبت الحمى في حماءه
 أبيعُ الحياةَ ولا أستشير
 وأهربُ من شرها المستطير
 على ظهر عبدٍ مُقلِّ فقير
 أمنت بحصنِ العزيزِ المجير

بل إنه في « مرثيتي » يستشرف آفاق الشهادة، وجلاده يصرف على أسنانه: كيف يموت بغير إذني؟ فيقول:

أَغْمِضْ عَيْنِيَّ وَلَقِّنِّي إِسْمَ حَبِيبِي / فَأَنَا سَأَمُوتُ / سَأَعُودُ إِلَيْهِ فَلَا تَبْكُ /
واضحك حتى تملأ أصداء الفرحة كل الكون / سأعود إليه / فأنا المشتاق إلى
لقياه / والخورُ أراها يا صاح / الخورُ تنادي سيدها / تخفي الطرفَ بطرفِ
الثوب / وأشمُّ مع العطر شذاها!

ولعل الله تعالى أكرمه بميته التي كانت في رمضان « 1404 هـ - 1983 م » بعد الإفطار وصلاة المغرب، مسافرًا معتمرًا مغتربًا، ناويًا الاعتكاف في الحرم الشريف، لعل في هذا إكرامًا من الله تعالى له، وتوفيقًا ليلقى ربه الكريم - الذي كان يجب لقاءه - على عمل صالح.

ولعل في هذا أجر شهادة يناله بتوفيق الله تعالى، ثم بنيته، وهذه الأعمال الكريمة مجتمعة، فاللهم إذا كنت حرمتنا لقاءه في الدنيا فاجمعنا به في الجنة، مع الحبيب ﷺ، أنا والدكتور أكرم وحضرتك أيها القارئ الكريم.

(9)

التراثي المبدع

نفة شعره

والشيخ - بتوفيق الله إياه ثم بثقافته - يحسن توظيف التراث، وتنوع مصادره، ليصل إلى مقصوده، فهو يناجي أمه بلغة، ويخاطب صغيرته بأخرى، وإن جمع بين الخطابين كونهما من التراث، الذي يمكن توظيفه للوصول للمقصود، انظر إليه وهو يخاطب أمه:

فَرِّيَ إِلَى الْمَحْرَابِ .. بَثِي شَكُونَا اللَّهُ .. فِي ثِقَّةٍ .. وَفِي إِذْعَانِ
صَوْغِي الدَّعَاءَ مَدَامًا وَمَدَامًا تَهْفُو إِلَى غِيْثٍ قَرِيبٍ دَانِ

قولي له: ولدي لديك وديعةٌ نذرتُ لتحمل راية القرآنِ
ذو النون في بطن الظلامِ حفظتهُ سبحانهك اللهم، ذا الإحسانِ
وحميتَ موسى حين ألقى عاجزًا في اليمِّ.. يحمل آية الرحمنِ

ثم ارجع البصر - حين يخاطب ابنته⁽¹⁾ - كرة أخرى، تجد اللغة وقد اختلفت،
والمضمون وقد رق، والمرجعية وقد تبدلت، تأمله في قصيدته (زيارة)، وهو يقول:

لا زلتِ تذكريني؟! / ولم تزل ودودةً ملامحك؟! / أما أنا فلم تزل بيسمتي
بقيةً أزفُّها لبسمتك / وحينما نُردُّ يا صغيرتي لدارنا / وتسألين عن هديتك /
ستسمعين يا أميرتي حكايةً " الشَّاطِرُ حَسَنٌ " / مضى ليقهر الغيلان في المدينة
السوداء / وحينما التقى بالأعرج الحقود هذه بطعنة من خنجره / واستخلص
الحسنة / روى حقول قمحنا بدمعه / وجاد بالدماء / ستعرفين قصة الحماسة
البيضاء / وقصة الطيور والغناء / وقصة الغراب والخراب / والأسود والذئاب
والكلاب / لسوف تعرفين أن إسمك الحبيب بسمةً في ألف قلب / يا بسمةً
تُحَب.

وفي قصيدة (صغيرتي) يوظف القصص؛ في محاولة منه لتشكيل وعي طفله على
البعد، فيقول:

كي تفهمي صغيرتي: هل تذكرين / حديقة التمساح والأسد؟ / تلك التي
ركبت فيها ذلك الجمل / يمضي بنشوتك الحبيبة ناعمًا / وهو السعيد بما حمل /
هل تذكرين صاحب العرين / ذاك الذي تزيد عنده الخطى / ذاك الذي لا
تَجسُر الوحوش أن تنال ساحته / قد نلته صغيرتي / قذفت من يديك ما
أصاب هامته / العيب يا صغيرتي في قسوة الأغلال / لا عيب في الرجال /
العيب فيمن يعشق انحناءة الرجال.

(1) ليست ابنته وإنما هي أخته فلم يكن قد تزوج بعد.

استلهام القرآن

وبمناسبة اللغة وطواعيتها بحسب المخاطب، فلن نخطئ عينك - بقليل من التأمل - وجود مقدار من التناص واستلهام القرآن في مواضع عدة: يقول في الله أكبر:

الله أكبرُ: بِسْمِ اللهِ مُجْرِيهَا اللهُ أكبرُ.. بالتقوى سُرْسِيهَا
وفي أمي يقول:

والغيثُ.. تصنعه يدُ قدسيَّة والحبُّ ذو عصفٍ مع الرياحِ
وفي قصيدته: وكان ملحدًا ومات، يقول:

والنور في إصراره العجيب / يعبر الدجى لفجره / فلتخشع الأصواتُ
للرحمن / ولتُنصتِ الأكوان / فالشيخ قد بدا / يرتل القرآن / يرتل القرآن..
القرآن..

وفي قصيدة الألم يقول:

وفي رياض وعده الوفي نرتمي / وإنه لحق / البيع رابحٌ.. ورايحُ!

(10)

المحب

حبه الكبير

ولعل من التأكيد وعدم التكرار أن أذكر هنا بحبيه الكبيرين:

■ حبه الأول وهو الحب الجارف لله تعالى، ونبرة التوحيد التي تبدو عالية في خطابه الشعري - ولا نزكيه على الله - فتأمل قوله:

رغبت انتساباً لرب الجلال يفوق الطموح بقلب الجسور
فأشهدت خلقك أني عبدٌ أحبُّ المليك العزيز الغفور

وَأَسْلَمَ عِنْدَ رِضَاكَ الرَّحَالَ وَأَلْقَى لَدَيْكَ عِنَاءَ الْمَسِيرِ

وفي « مرثيتي » يعلن فرحته بلقاء الله تعالى:

أَغْمَضُ عَيْنِيَّ وَلَقْنِيَّ إِسْمَ حَبِيبِي / فَالطَّائِرُ يَعْرِفُ تَغْرِيدًا / لَا يَطْلُقُهُ إِلَّا فِي

لَحْنِ رَحِيلِ!

وفي قصيدته القوية، التي تنضح حبًّا ورضًا بالله تعالى، يقول:

أَنَا قَدْ وَقَفْتُ بَبَابِ رَبِّ قَادِرٍ يُرْجَى لَدَيْهِ النَّفْعُ وَالْإِيْوَاءُ
وَكْرَهْتُ أَنْ أَلْقِيَ لِعَبْدٍ حَاجَةً فَعَبِيدُ رَبِّي كُلُّهُمْ مُنْ فَقَرَاءُ
وَلَقَدْ سَأَمْتُ سَوْأَلَهُمْ فَسَأَلْتُهُ وَتَرَكَتُ سَاحَتَهُمْ بِي اسْتِغْنَاءُ
أَسْلَمْتُهُ ضَعْفِي لِيَقْوَى عِنْدَهُ فَالضَّعْفُ عِنْدَ رَحَابِهِ اسْتِعْلَاءُ
يَا مَنْ وَسِعَتْ الْكُونُ.. رَبًّا قَاهِرًا أَشْكُو إِلَيْكَ بِأَنْنَا سَجْنَاءُ

وفي رائعته « ببابك » يهتف:

قُلُوبٌ هَزَّهَا التَّوْحِيدُ.. رَدَدَ حَيْثُهَا حَبَّكَ

وَنَهْتَفُ فِي جَبِينِ الصَّبْحِ.. حِينَ يُقَالُ: مَنْ رَبُّكَ؟

إِلَهِي خَالِقَ الْأَكْوَانِ.. لَا أَسْعَى إِلَى غَيْرِكَ

إِلَهِي فَالِقَ الْإِصْبَاحِ.. أَشْرَفَ أَنْنِي عَبْدُكَ

■ وأما حبه الثاني⁽¹⁾ فكان لوالديه رحمهما الله، إذ عاش الشيخ رحمه الله تعالى معاناتهما، وأحس بمشاعرهما المجروحة لبعده وحبسه، وعائش آلامهما ومواجههما لفقده، فكتب لهما، وواساهما، وأشركهما معه بعضًا من تصوراته..

انظر إليه وهو يتحدث عن والدته في قصيدته: لا تذكر الحياة:

(1) أظن أنه الثالث حيث حبه الثاني لنبية محمد صلى الله عليه وسلم وراجع قصائده: يوم الحبيب صلى الله عليه وسلم / المادحون / إسرائ / يا رسول الله جئنا.. من الديوان، وقصيدة: أنوار الروضة، التي قالها بعد خروج الديوان للنور.

لا تقل لي إنها تجففُ الدموعَ في السحر / تحيب للجميع باسمه / تقبّل الطيوفَ
لا ترى سواه / تسرق الخطى لموضعه / تقبل الثياب / وسمّعها معلّقَ بطرقةٍ بالباب
/ وحيدةً / وحوها الضياع / وليها ويومها التباع!
وأرجو أن يكون في هذا المقدار كفاية..

وفي الختام: أرجو ألا أكون قد آذيتك قارئ الكريم، فما هذه إلا قراءة عاجلة،
التي لم توف الشيخ حقه!

وأسألك بالله أن تسامحني إن وجدت تقصيراً، وإن أحسنت بأخيك ظناً، فادع له
بظهر الغيب؛ لأنه أحوج ما يكون لدعائك، ولأن ملائكة الرحمن سترد عليك: ولك
بمثل، فلا تبخل علي وعلى نفسك.

أشكر لك صبرك، وأشكر أخي المبارك الجميل المتوقد. أكرم رضا على هذه
الفرصة العظيمة، التي منحنيها من غير كوندوليسا ولا كوفي ولا جوانتانامو؛ لأترحم
بطريقتي على داعية جليل، وشاعر نبيل، وفارس مجلّ، ولأسدد بعضاً من دينه في
عنقي، الذي كان يستحق السداد من ثلاثة عقود.

سبحانك الله وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك⁽¹⁾.

عبد السلام البسيوني

الدوحة القطرية في 31 / 7 / 2005م

* * *

(1) وأنا أشكر أخي الأكبر وأستاذي عبد السلام الذي زادني استقباله المنبهر بإبراهيم عزت الشاعر حباً له،
وتقديراً لشعره؛ فوق تقديري وحيي. أكرم

شعر إبراهيم عزت

دراسة وتقويم

د. حسن عبد السلام

تناول الدكتور حسن عبد السلام شعر الشيخ إبراهيم عزت من خمسة جوانب، نذكرها هنا، ونلخص تحتها ما ذكره الدكتور⁽¹⁾.

1- التجربة الشعورية

التجربة الشعورية هي تفاعل الشاعر بعواطفه وأحاسيسه مع الأفكار أو المواقف والأحداث التي يريد التعبير عنها وتصويرها.

وبقدر معاناة الشاعر في معاشة أفكاره ومواقفه، وإخلاصه في الإحساس بها، وصدقه في التعبير، يكون نضج التجربة، وقدرتها على التأثير في متلقي الشعر.

هم واحد:

والحق أن الكلام عن أغراض للشعر أو موضوعاته عند «إبراهيم عزت» غير متاح، فليس في شعره تنوع للمادة الفكرية والمواقف التي تبني عليها التجارب، فلقد كان الرجل داعية في شعره، كما كان شاعراً في دعوته. والهـم الذي ملأ نفسه، وشغل فكره، واستحوذ على مشاعره هم واحد.

لقد أصدر الشاعر ديواناً اختار له عنواناً هو عنوان أولى قصائده تريباً، فسماه «الله أكبر»، والحقيقة التي يعبر عنها هذان اللفظان هي التي عاش الشاعر بها ولها، فليس له تجارب أراد التعبير عنها، أو مواقف قصد تصويرها تخرج عن دائرة هذه الحقيقة.

(1) مصدر هذا المقال: كتاب بنفس العنوان - طبعه المؤلف الدكتور حسن عبد السلام بدون بيانات نشر، وقد قمت بانتقاء هذه المباحث من الكتاب؛ لتشكّل إن شاء الله وجهة نظر المؤلف في شعر الشيخ إبراهيم عزت رحمه الله. وقد وضعت بعض العناوين الجانبية للفقرات مساعداً للقارئ في استيعاب الفكرة، بجانب ما ذكرته مسبقاً حول نقد الدكتور حسن لبعض جوانب الديوان.

حتى قصائده التي قد توهم من عناوينها أنه جاوز دائرة « الله أكبر » هي في حقيقتها في قلب هذه الدائرة فقصيدة « أمي » وقصيدة « أبي » وقصيدة « صغيرتي » كلها أجزاء من هذا النسيج الواحد، الذي يتشكل منه ديوانه.

ماذا تقول في شعر لم يتغزل قط، ولم يهج قط، ولم يمدح أميراً ولا ملكاً ولا رئيساً، ولم تهتز ملكة الشعر فيه لأحد من الناس تمدحه سوى رسول الله ﷺ؟! لقد أخلص في إيمانه، وجعل حياته كلها في حدود هذا الإيمان، وصار تدينه طبعاً فيه، فلما شعر، جاء شعره أقباساً من نور إيمانه، وقطعاً من نفسه ووجدانه. وبعد هذا الكلام النظري يحسن أن نقرأ بعض أشعاره لنرى مدى التآلف بين الطبع والتعبير، ومدى الانسجام بين ما استقر في قلبه وما جرى به قلمه. يقول في قصيدة « أمي » مخاطباً ربه عز وجل:

لبيك حتى تستجيب دعاءنا
لبيك في جذب وفي إحسان
لبيك في نبض القلوب حلاوة
تهب الخلود إلى التراب الفاني
شوقاً بها.. نظوي الحياة وركبها
نستعجل اللقيام مع الرضوان

ومن فيض هذه الحقيقة جاء تعبيره في خطاب ربه عز وجل في قصيدة « لحظة الوصال » إذ يقول:

مشتاقاً إليك سيدي جوارحي / مشتاقاً إليك في القلوب لمحة / محتاجة من نورك
الفياض / بعض ما يبيل غلة الظمأ.

وعن الحقيقة التي استقرت بفؤاده، وملكت عليه نفسه، يصدر تبتله الخاشع في قصيدة عنوانها « بابك » التي يقول فيها:

بيابك لــــن أغــــادره
ولــــن أــــســــمــــى إــــلــــى غــــيــــرك
سأنــــج بالرضــــا ثوبــــي
وأشــــرف أنــــنــــي عــــنــــدك
وأحــــمد حــــينــــمــــا تــــعــــطــــى
وتجــــري بالــــعــــطــــا كــــفــــك
وأحــــمد والقــــضــــا يــــبــــلو
وأطــــمــــع فــــي ســــنــــا عــــفــــوك

فإذا جاوزنا شعر المواجيد الإيمانية والأحوال القلبية في مثل هذه القصائد، ونظرنا إلى شعر الواقع في السجن الحربي والمعتقل، الشعر الذي يصور معاناة الدعاة في عهد الاستبداد والظلم، وجدنا هذا الشعر - أيضًا - فيصًا متدفقًا من نبع الإيمان في نفسه، أليس إيمانه هو الذي جلب عليه هذه المحن، أليس إيمانه هو ملاذه الوحيد الذي يستمد منه الصبر على تحملها، والأمل في تجاوزها؟

هذه قصيدة تصور المحنة عنوانها «الألم» يقول فيها:

ليهدأ الشهيد إن صدق / فلم تزل مظاهر الحياة في القلوب / يصونها من
الضياع أن ربها كبير / وأنا بركنه الشديد نستجير / وأنا بظله الحبيب نحتمي
/ وفي رياض وعده الوفي نرتمي / وإنه لحق / البيع رابع ورابع / نظل في مواطن
البلاء والرجا نوحده / ونذكر اسمه الحبيب حينما يضمنا السجود / وحين يبدأ
الحديث بيننا وبينه نمجده / وتشرق الحياة باسمه الودود حينما نرده.

هذه هي عواطف الشاعر التي عنها صدر، وهذه هي تجربته الشعرية التي عاشها،
تمثلة في الإيمان الذي عاش به وله، ومهما لاقى في سبيل إيمانه فإن حقيقة «الله أكبر»
التي جعلها عنوانًا لديوانه تهون عليه الألم، وتحيي في قلبه غراس الأمل.

هذه الحقيقة التي تصون الحياة من الضياع، وفي ظلها يحتمي المؤمنون وفي رياض
وعدها يرتمون، ويرددونها فتشرق الحياة.

2. الالتزام الإسلامي:

يدرك المرء أول ما تقع عينه على الغلاف الداخلي لديوان « إبراهيم عزت » أنه شاعر إسلامي ملتزم، وتبدو مظاهر هذا الالتزام فيما يلي:

- العنوان الذي اختاره الشاعر لديوانه « الله أكبر ».

- الصورة التي رسمت على الغلاف متمثلة في كفين ترفعان المصحف الشريف.

- تصدير الديوان بإحدى سور القرآن الكريم هي سورة الكافرون، والتي

يقول فيها ربنا عز وجل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَبدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عَبدُونَ مَا

أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ [الكافرون].

- كلمة الإهداء التي كتبت على غلاف الديوان، والتي وجهها الشاعر إلى أمه وأبيه وإخوته، وإلى الذين شاركوه آلام المحنة التي تعرض لها، وإلى من سبقوه إلى الجنة وإلى من ينتظر، وإلى الذين تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم.

- ترتيب القصائد الأولى في الديوان، حيث جاءت القصيدة الأولى « الله أكبر »

والثانية « أمي » والثالثة « أبي » والرابعة « صغيرتي »، وهي موجهة إلى أخته

الصغرى « منى » ولم يراع ترتيباً زمنياً ولا غيره، ما يدل على أن وراء هذا

الترتيب قصداً إلى الالتزام بأولويات الطاعة والبر اهتداء بقول الله عز وجل:

﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ۚ

[النساء: 36].

- وفي تقديمه قصيدة « أمي » على قصيدة « أبي » مراعاة لدرجة البر وحق

الإحسان، فقد ورد في الحديث الشريف تقديم حق الأم على حق الأب.

ومع هذا الالتزام الإسلامي الذي تبدو مظاهره واضحة من غلاف الديوان وعنوانه وصفحاته الأولى، فإننا عندما نقرأ شعر « إبراهيم عزت » نجدنا مع المثل المنشود للشعر الإسلامي، ذلك الشعر الذي لا يجور على حقائق الدين لإرضاء مقتضيات الفن، ولا يهمل مقتضيات الفن للتعبير عن حقائق الدين.

إن بعض الذين يتحمسون لقضية الأدب الإسلامي يسيئون صنغاً عندما يتصورون أن مجرد الوعظ ونظم التعاليم هو كل ما يطلب من الشاعر المسلم.

إن شعر إبراهيم عزت لم يخرج قيد أنملة عن حقائق الدين، ومعاني الإسلام، بل إنه في ظلال القرآن يسير، ومن سنة الرسول ﷺ يقتبس، ومن تاريخ صحابته يستوحي ويستدعي، وهو مع هذا كله لم يتحول إلى واعظ، ولا إلى ناظم حكم.

وكل قصيدة من قصائد شعره صالحة للتدليل على التزامه الإسلامي، وصالحة كذلك للبرهنة على اقتداره الفني.

وفي هذه القصائد تلتقي قيم الفن في انسجام متقن مرده في رأبي إلى أن إبراهيم عزت رحمه الله كان شاعرًا موهوبًا عاش الإسلام، فلما شعر وعبر عن حياته لم يخرج عن حدود حياته التي صاغها دينه.

لقد أثمر الالتزام بالدين كمنهج حياة عند الشاعر أن جاء شعره حاملاً قيم هذا الدين في كل قصيدة، بل في كل بيت وفي كل سطر.

3- الأطر الموسيقية:

موسيقى الشعر هي أحد الفروق الأساسية بين القصيدة وقطعة النثر، بل هي الفاصل الذي تميزه الأذن عند الاستماع لفرعي الأدب.

وكانت موسيقى الشعر مجالاً لخلاف كبير بين أجيال من النقاد والشعراء، ولا تزال آثار هذا الخلاف موجودة إلى يومنا هذا، بل إن الجدال حول موسيقى الشعر لم ينته بعد.

وجوهر الخلاف يتمثل في مدى حرية الشاعر في أن يخرج على النظام الموسيقي الموروث للقصيدة العربية.

وبالنظر إلى ديوان (الله أكبر) للشاعر «إبراهيم عزت نجد أنه حاول أن يحقق توازناً فيما يكتبه بين النمطين، الموروث والجديد، فلقد حوى الديوان ثمانى وعشرين قصيدة، منها ثلاث عشرة قصيدة على النمط الموروث، وخمس عشرة قصيدة على النمط الجديد⁽¹⁾.

والقصائد المتحررة من وحدة القافية لم تفقد النغم الموسيقي، وحفلت بانسجام في الإيقاع وتناسق في نهايات السطور، وتناسب في الألفاظ والحروف، وروعة في التصوير، وسلاسة في التعبير جعلتها من أفضل ما كتب في الشعر الجديد⁽²⁾.

ولقد سلم هذا الشعر من العيوب التي أخذت على كثير من كبرائه وحمله لوائه، هذه العيوب المتمثلة في مخالفة قواعد اللغة والنثرية، والركاكة، وحمل مضامين تصادم عقيدة الإسلام، والتشعب بالرموز الوثنية، ومقولات العقائد الباطلة، والغموض.

4- الصورة الشعرية:

من أهم خصائص الشعر الجيد: إيجازه بالمعنى دون كشف، وتأثيره في النفس عن طريق الصورة، قبل أن يؤثر في العقل عن طريق الفكرة.

فالشعر لغة العواطف، وهذه اللغة مطيتها الخيال القادر على اكتشاف العلاقات البعيدة بين الأشياء، والقادر على التجسيد المعنوي، وتشخيص الجماد، وبعث الحياة فيما لا حياة فيه.

(1) راجع قصائد: الله أكبر، أمي، دعاء، كنموذج للنمط الموروث وقصائد: أبي، وبعد، اليوم عيد، حبيبي بلادي، كنموذج للنمط الجديد.

(2) ومن أفضل الأدلة على موسيقية تلك القصائد أنها من أروع الأناشيد التي غناها منشد الصحوة أبو مازن، من غير أن يستخدم أي أدوات موسيقية إلا صوته العذب وألحانه البسيطة المعبرة، فارجع إلى: ملحمة الدعوة، اليوم عيد، حبيبي بلادي، في شرائطه.

وشعر إبراهيم عزت في مجال التصوير غني جداً، ففي أكثر قصائده يرسم لوحات، ولا يسوق أفكاراً، ولا يعدد أحداثاً، انظر إلى خطابه أمه إذ يقول:

يا واحة العمر الغريب تَضْمَنِي
وبها أطالع في المهجير أمانِي
في ظلها أشكو فراغ شباكه
وأبوح بالمكنون في خفقتانِ
يا من بها فزحي غدا أنشودةً
ولهاتجددُ بسمه وأغانِ
وحنانها دفءٌ يهددُ غربتي
ويدُّ تكفُّفٌ وحشة الأحرانِ

تجد في هذه الأبيات الخيال الخصب، الذي بفضلته تحولت صفات الأم إلى صور متحركة، وخرجت من عالم الفكر الجامد إلى عالم الحس الحي، فالأم واحة تضم ابنها في ظلها، وهذه الواحة ذات الظل حنانها دفء يهدد غربة الشاعر، ويد تخفف وحشة أحزانه. وعمر الشاعر غريب، شبابه فارغة، لكنه في واحة أمه يرى أماناً في المهجير.

وفي قصيدة «دعاء» ينظر الشاعر في كون الله فيراه لوحات ناطقة بقدره الله عز وجل، فيسبح ربه معها، وينضم إلى موكبها الحافل بالصور التي رسمتها كلمات الشاعر في قوله:

أَسْبَحُ رَبِّي مِثْلَ الطُّيُورِ وَأَهْتَفُ بِاسْمِ إِلَهِي كَبِيرِ
أَرَى كَبِيرِيَاءَ بِلَوْنِ السَّمَاءِ وَوَمَضِ النَّجُومِ وَبُعْدِ الْمَسِيرِ

وعندما يتحرر «عزت» من القافية تتراكم الصور في تعبيره، وتقترب من عالم الرمز الدال الموحى، وليس الرمز الغامض المغلق.

في قصيدته «أبي» يذكر لأبيه ما رآه من ألوان العذاب في السجن.. فكان مما قال:

النظرة المعقوفة الشعاع تقتل الأمان في العيون / واللفظة المعذبة /
تمزق الأستار في مجنون / والصرخة المروعة / في الغرفة المفزعة / معزوفة

الجنان في حدائق الجنون⁽¹⁾.

ومن الصور العجيبة أيضاً قول عزت:

والقلب حينما يزوره الأسي / تضمه في بُردة الأمان بسممة الشهيد / الصبر
يعرف الجميع / الصبر رافق الخطى على الطريق.

فالأسي والصبر هنا شخصان يتحركان، وبسممة الشهيد كذلك تضم القلب في
بردة الأمان!

عزت والكيلاني والقرضاوي:

وليطهر تميز شعره في جانب التصوير، سننظر في قصيدة له وقصيدتين لشاعرين
آخرين، والقصائد الثلاث تحدثنا عن محنة السجن التي ذاقوا مراراتها في سجون العهد
الظالم، وهذه القصائد هي:

قصيدة إبراهيم عزت « وبعد »، وقصيدة يوسف القرضاوي « الملحمة النونية »،
وقصيدة نجيب الكيلاني « حبيبي أنا اعترفت »، الأولى تصور، والثانية تصف،
والثالثة تقص.

الكيلاني يعترف..

فلنعرف القصة أولاً من نجيب الكيلاني:

جدران سجننا سميكة / والسقف فولاذ وصخر وقدر / حبيبي من أجل ذلك
اعترفت / وقلت كل شيء كان / كل شيء لم يكن

صبرت حتى الصبر قال لي « اعترف » / الموت، والجلاد، والسياط، والكلاب /
وأعين جواظ تموت / تنذر بالعواصف المدمرة / لكنها تموت!

وقلت يا حبيبي بأني / قد خنت سيدي / وهو ولي نعمتي / ذاك الذي جاء لي

(1) (الجنان: الجن، فصيحة).

بعزتي / حريتي / كرامتي / وأنني الضليع في المؤامرة / ولست أدري ما المؤامرة! /
وماذا يفعل البريء حين يتهم / إذا صمت / إذا انخرس / فهذه إدانة مؤكدة!

رجلاي في سلاسل السقوف / ورأسي المدلي المحتقن / تركله الأحذية الثقيلة /
وعاد سيدي المطاع والزبانية / وما استطعت ان أميز الوجوه / من البشر؟ / من
الكلاب.

لا أعي / حتى السياط والأكف والإبر / وانتزاع أظفري / وهل يضير الشاة
سليخها / إذا ذبحتها؟! / لكن قلبي خافق / لم يبق لي سوى اللهاث يحترق / سوى
الفؤاد يختلج

وقال لي: أتعترف؟ / منذ ثلاث لم أنم / لكم أريد أن أنام / وقلت في مرارة: /
فلتجهزوا الوثيقة / قالوا: نعدها / قلت: الورق / أريد رقعة بلا حروف / بيضاء أو
صفراء لا يهم / لكي أخط عند ذيلها / اسمي واسم أسرتي / بمحض رغبتني!

وقهقه المفتش الكبير / أنحن نفترى عليكم الكذب؟ / معذرة إليك سيدي /
فأنت صاحب الولاء والوفاء والأدب / إني اعترفت بالذي جرى / وكنت أنوي
قتلكم / وكنت أبغي سحلكم / قررت أن أغير النظام!

وتتم المحقق الكبير وانبرى مفسراً / فإنه انقلاب! / من الذين حرضوك؟ / من
تراهم مولوك؟ / أو دربوك؟ / زدوك بالسلاح؟

حببتي قد اعترفت / واعترافي ناقص / وليس لي من مخرج سوى المزيد / والمزيد
من الكلام / لأنهم لا يقنعون!

حببتي قد قلت كل شيء / ما عرفته / وما جهلته / وما يراود الفؤاد من أحلام
/ أو جال في سريري / ونزوتي من الأوهام والأحزان / أو طاف لحظة بخاطري /
حتى مهازلي / نوادري! / « ونكتة » سمعتها من « الترام » / حتى رؤاي في المنام /
ذكرتها لهم / وهم يفسرون كل ما أقول / وليس لي سوى المثول والقبول / أنا البريء
والأثيم / والقاتل الخؤون والقتيل / وإنني الدليل / حتى وإن لم يطلبوا الدليل / جميع

ما يسطرونه من الكذب / مقدس.. بلا شكوك أو ريب / الأصل عندهم هو الإدانة /
وإن تشدقوا بالعدل والأمانة / « سبحانهم... سبحانه » / وقلت في النهاية: « قتلته..
ذبحته.. أبدته / حتى إذا عاد إلى الوجود دسته / واغتلتته ».

تبسم المحقق الرصين / وقال في قراره المكين: / قد اعترفت / إن الذي قتلته في
حقدك المجنون لم يمت / لأنه كما تراه خالد عريق / من تحته ترقق الأنهار / ما أنت
إلا دودة حقيرة صرصار / ذبابة.. بعوضة.. بلا اعتبار.

هذه حكاية اعتراف الكيلاني في السجن الحربي بأنه كان متآمراً على النظام في
العهد البائد؛ اعترافاً منتزَعاً تحت وطأة التعذيب الجهنمي؛ لأن القوم كانوا يريدون
اعترافاً بأي شيء وبكل شيء.

والقصيدة طويلة جداً، وهي تقص علينا أطرافاً مما كان يحدث في غياهب
السجون التي امتهنت فيها قيم الحق والعدل، واغتيلت فيها كرامة الإنسان.

القرضاوي والملحمة النونية:

وهذه المأساة نفسها يصفها الدكتور يوسف القرضاوي في الملحمة النونية:

في ساحة « الحربي » حسبك باسمه
من باعثٍ للرعب قد طرحوني
ما كدت أدخل بابه حتى رأته
عيناى ما لم تحتسبه ظنوني
في كل شبرٍ للعذاب مناظرٌ
يندى لها - والله - كل جبين
هذا هو « الحربي » معقل ثورة
تدعو إلى التحرير والتكوين
فيه زبانية أعدوا للأذى
وتخصصوا في فنه الملعون
متبلدون.. عقولهم بأكفهم
وأكفهم للشر ذات حنين
لا فرق بينهم وبين سياتهم
كل أداة في يدي مآفون
يتلقفون القادمين كأنهم
عشروا على كنزٍ لديك ثمين
بالرجل، بالكرباج، باليد، بالعصا
وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دون

تالله أين الأدمية منهمو
من جودة، أو من دياب، ومصطفى
لا تحسبوهم مسلمين من اسمهم
لا دين يردع.. لا ضمير محاسباً
من ظن قانوناً هناك فإنها
جلاد ثورتهم.. وسوط عذابهم
أسمعت بالإنسان ينفخ بطنه
أسمعت بالإنسان يضغط رأسه
أسمعت بالإنسان يشعل جسمه
أسمعت ما يلقي البريء ويصطلي
أسمعت بالآهات تحترق الدجى
إن كنت لم تسمع فسل عما جرى
وأسأل ثرى « الحربي » أو جدرانه
وسل الشياطين السود كم شربت دمًا
وسل « العروسة⁽²⁾ » فُبحت من عاهرٍ
كم فتية زفوا إليها عنوة
واسأل زنازين الجليد تجبك عن
بالنار أو بالزمهرير.. فتلك في
يُلقي الفتى فيه ليالي عاريًا
وهناك يملي بالاعتراف كما اشتها

من مثل محمودٍ ومن ياسين
وحمادةٍ وعطيّةٍ وأمين⁽¹⁾
لا دين فيهم غير سب الدين
لا خوف شعب.. لا حمى قانون
قانوننا هو « حمزة البسيوني »
سموه زورًا قائدًا لسجون
حتى يرى في هيئة البالون؟
بالطوق حتى ينتهي لجنون؟
نارًا وقد صبغوه « بالفزلين »؟
حتى يقول: أنا المسيء خذوني؟
رباه عدلك.. إنهم قتلوني!
مثلي.. ولا ينبئك مثل سجين
كم من كسير فيه أو مطعون
حتى غدت حمراء بلا تلوين
كم من جريح عندها وطعين!
سقطوا من التعذيب والتوهين
فن العذاب.. وصنعة التلقين
حين، وهذا الزمهرير بحين
أو شبه عارٍ في شتا كانون
وإلا، فويلٌ مخالفٍ وحرون

وهذه الملحمة أيضًا طويلة جدًا، وهذا القدر منها يكفي للدلالة على أسلوب

(1) أسماء جلادين في السجن الحربي.

(2) من أدوات التعذيب.

صاحبها في وصف مآسي التعذيب في السجن الحربي. وقد وردت فيها أسماء بعض الضباط والجنود، وأسماء بعض آلات التعذيب، ووصف طرائقه. وهو أسلوب يختلف عن أسلوب الكيلاني الذي قص به قصة اعترافه.

عزت وملحمة الدعوة « وبعد »:

أما إبراهيم عزت فعندما أراد أن يحدثنا عن هذه المأساة فقد سلك سبيله الذي تجده في سائر شعره؛ سبيل التصوير الذي يوحي ولا يصرح، وينقل الأثر النفسي دون أن يسرد أحداثاً، أو يذكر أسماء، أو يصف وقائع في قصيدته « وبعد »⁽¹⁾ يقول إبراهيم عزت مصوراً ما قصه الكيلاني، وما وصفه القرضاوي:

وَبَعْدَمَا رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ / وَبَعْدَمَا عَرَفْتُ مَا عَرَفْتُ / الْمَوْتُ حَيْثَمَا دَنَتْ مَحَالِبُهُ
/ وَاللَّيْلُ حَيْثَمَا اعْتَدَى عَلَى الصَّبَاحِ ضَارِيًا يُعَالِبُهُ / الْمَوْتُ كَانَ أُمْنِيَّةً / وَالْمَوْتُ
كَانَ لِلجِرَاحِ أُغْنِيَةً / وَاخْتَارَ مِنْ صُفُوفِنَا / أَحَبَّ مَنْ رَأَتْ عُيُونُنَا.

ويقول:

عَيْنَاي تَسْبَحَانِ فِي الشُّرُودِ مِنْ يَوْمِهَا / مِنْ يَوْمِ أَنْ تَحَرَّكَ الْفَنَاءُ فَوْقَ كُلِّ
أَخْضَرٍ / يَا وَاحَةَ الْأَمَانِ أَفْغِرِي / قَدْ اسْتَبِيحَتِ الْحُرْمَ / وَسَيَقَتِ النَّسَاءُ
وَالْأَطْفَالُ لِلْحَمَمِ / لِيُطْعَمُوا لِوَحْشَةِ الظُّلْمِ / لِيُطْفَنُوا ابْتِسَامَةَ الصَّغِيرِ / لِيَهْتَكُوا
قَدَاسَةَ الْحُرْمِ.

ويقول:

تَكَسَّرِي سَنَابِلَ الْعَطَاءِ وَاسْجُدِي / وَمَرَّغِي تَيْجَانِكَ الشَّمَاءِ فِي الشَّرَى / يَا
خُضْرَةَ الرِّيتُونِ / فَلْتَرْتَدِي السَّوَادَ فَوْقَ كُلِّ عُوْدٍ أَنْمَرَا / وَيَا مَدَامِعَ السَّحَابِ
طُوفِي عَلَى الدِّيَارِ / وَأُوْدِعِي بِكُلِّ شِبْرٍ دَمْعَةً مِنَ السَّمَاءِ / وَأَكْثِرِي عَلَى الْمُحَارِمِ

(1) سهاها أبو مازن في شريطه السابع (ملحمة الدعوة) وهو اسم أكثر تعبيراً مما وضعه الشاعر.

البُكاء ... أَكْثَرِي البُكاء.

وفي نهايتها يقول:

وَبَعْدَمَا رَأَيْتَ مَا رَأَيْتَ .. هَلْ تَعُودُ لِلطَّرِيقِ؟ هَلْ تَعُودُ؟ / وَقَبْلَ أَنْ أُجِيبَ /
تَحَرَّكَتْ مَدَامِعِي هَدِيَّةً لِمَنْ مَضَى / وَأُرْهَفْتُ مَسَامِعِي / لِأَسْتَعِيدَ مِنْ مَوَاطِنِ
الغُيُوبِ / وَصِيَّةً سَمِعْتُهَا فِي لَحْظَةٍ مِنَ الرِّضَا..

وَاهْتَزَّتْ قَلْبِي الَّذِي قَدْ هَدَّهُ الْعَذَابُ / أَحْسَسْتُ رَعَشَةً بِجِسْمِي الَّذِي يَخَافُ
عَضْبَةَ الذَّنَابِ / وَجَاءَ ضَعْفِي الْكَيْبُ جَاءَ / عَرَفْتُهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنَ الضَّنَى قَدْ
عَشْتُهَا / أَتَى يُقَدِّمُ الرَّجَاءَ ... / تَعَلَّقْتُ عَيْنَاهُ بِالْجَوَابِ (1).

نحن هنا بإزاء شعر يصور، لا يصف، ولا يسرد، تطالعنا فيه لوحات تفجر في نفوسنا أحاسيس غامضة ومشاعر فياضة، إلى حالة من الحزن الشفيف، والتعاطف الرهيف مع هؤلاء الذين عاشوا الأحوال التي تصورها هذه اللوحات.

أرأيت إلى هذه الصور التي حشدها الشاعر حاملة نبض قلبه ووساوس نفسه ودقائق حسه، حافلة بالعواصف والرمود، والمآسي السود، التي حزنت لها الأرض واهتزت السماء. هذا هو الفرق بين التصوير وبين الوصف والسرد، وهكذا كان «إبراهيم عزت» مصوراً في أكثر شعره.

5- النزعة الدرامية والوحدة العضوية:

المقصود بالنزعة الدرامية في الشعر، أن تشتمل القصيدة على صراع وحركة، وتصوير لتناقضات الحياة، وعناصر هذه النزعة تتمثل في: الحدث، والحوار، ورؤية الشاعر الخاصة.

وبالنظر في شعر «إبراهيم عزت» نجد هذه النزعة واضحة جداً عنده، ويرجع

(1) راجع القصيدة كاملة في الديوان، واسمها مغناة في الشريط السابع من شرائط أبي مازن.

وجودها على نحو مكثف عنده إلى أن أكثر شعره تصوير لتجربته في الدعوة وما تحمله في سبيلها، وهذه التجربة تتشكل من أحداث مثيرة، وصراع بين الخير والشر، ومواجهة بين كثير من المتناقضات.

ولقد استوعب شعره عناصر هذه النزعة جميعاً: الحوار الداخلي، والحوار الخارجي، والأسلوب القصصي.

ومن المواضيع التي يمكن استكشاف الخيط الدرامي فيها قوله من قصيدة «أبي»:

فلتوقد النيران / وليسقط الإنسان بين شَقِيّ الرحي / كي تنتهي معالمه /
وليرقص الشيطانُ في أيامه الحمراء / يأبها الطيورُ: لا غناء / فمن له تغردين
قد قُتل / ولتقبل الزهورُ عذرنا / فعرسنا من قبل بدئه انتهى / والصاحبُ
الحبيب دون موعدٍ رحل.

ولعل أدل قصيدة على الصراع «صراع الشاعر مع ضعفه ومحنته»، وعلى الحركة، وتصوير التناقضات، قصيدة «عذابنا» والتي يقول فيها:

أغالب النحيبَ والعيول والصراخ / أغالب الكلامَ والدموع / أغالب النظراتُ
/ فكل ما نقوله من الكلام عاجزٌ / مهدمٌ / مقيدٌ / وكل ما نراه مرهقٌ معدّبٌ.
وقصائده: الألم، فلنطلق ابتسامنا في ليلة العزاء، وبعد، كلها غنية بالصراع
والأحداث، حافلة بتصوير المتناقضات.

ومن القصائد التي استعان الشاعر فيها بأسلوب الحوار: «أمي، أبي، صغيرتي،
مرثيتي، حبيبتي بلادي» ويستدعي إبراهيم عزت بعض قصص الموروث الشعبي
فيضمنه بعض قصائده فيقول مخاطباً أخته الصغرى:

وحيناً نُرَدُّ يا صغيرتي لدارنا / وتساءلين عن هديتك / ستسمعين يا أميرتي
/ حكاية «الشاطر حسن» / مضى ليقهر الغيلان في المدينة السوداء / وحينما
التقى بالأعرج الحقود هدّه / بطعنة من خنجره / واستخلص الحسناء / روى

حَقُولَ قَمَحِنَا بدمِعه / وجاد بالدماء.

وقد تستقل القصة بقصيدة، فتأتي القصيدة كلها مثل قصة قصيرة، لكنها لا تفقد روح الشعر، وذلك كما في قصيدة وكان ملحدًا ومات، وقصيدة مصعب بن عمير التي يقول في مطلعها:

وَكَانَ مُصَعَّبٌ مُعَطَّرًا بِأَنْدَرِ الْعُطُورِ / وَكَانَ يَلْبَسُ الْحَرِيرَ / وَكَانَ شَامَةً أَحَبَّتِ
الْحَيَاةَ / وَزَهْرَةً تَنَفَّسَتْ رَوَائِحَ النَّعِيمِ / وَفَجَاءَتْ تَغَيَّرَتْ مَلَايِحَهُ / وَحِينَمَا رَأَتْهُ أُمُّهُ
تَجَهَّمَتْ / نَادَتْ أَبَاهُ: يَا عَمِيرُ / صَغِيرُنَا الْحُبِيبُ / مُثَقَّلٌ بِسِرِّهِ / لَا بُدَّ أَنَّهُ أَحَبُّ (1).

وتتمثل في هذه القصيدة عناصر القصة كلها، الأحداث والحوار والشخص، والحبكة، وهي مع ذلك شاعرية اللغة والتصوير.

ومن حسنات هذه النزعة أنها تحقق قدرًا كبيرًا من الوحدة العضوية للقصيدة، فترابط الأحداث وانتقال الشاعر من موقف إلى موقف مترتب عليه، وتنامي المواقف لتصل في نهاية القصيدة إلى ما يشبه انفراج الأزمة في القصة، كل ذلك يؤدي إلى قدر من الوحدة العضوية، يعصم القصيدة من أن تكون أفكارًا مبعثرة أو خواطر متفرقة.

* * *

(1) راجع القصيدة كاملة في الديوان، واستمع إليها مغناة في الشريط التاسع من شرائط أبي مازن.

إبراهيم عزت شاعر الدعوة والوطن

عبد الله رمضان⁽¹⁾

حفلت فترة الستينيات بالعديد من الشعراء المبدعين، والذين استمر أثرهم الشعري إلى الآن، ينهل منه عشاق الأدب، ويتلمذ عليه ناشئة الشعراء، ويتغنى به المثقفون والبسطاء، ولا يفوتنا أن نشير إلى أمل دنقل ومحمد عفيفي مطر وفاروق شوشة وغيرهم الكثير؛ غير أن كل هؤلاء نالوا حظًا من الدراسات الأكاديمية أو المقالات النقدية أو غيرها، والتي تدرس شعرهم، وتضعه في إطاره المناسب في تطور حركة الإبداع العربي، لكن هناك الكثير من الشعراء الذين أغفلهم نقادنا وإعلامنا - أو تغافلهم - ربما لاعتبارات بعيدة عن الأدب والنقد، ومن هؤلاء الشاعر الشيخ إبراهيم عزت، الذي لا يقل إبداعه الشعري روعة عن إبداع الفحول المحدثين من أبناء جيله - جيل الستينيات - وربما تميز شعر إبراهيم عزت بميزات خاصة، هو أنه كان نابغًا في أكثره من معاناة حقيقية اصطلح بويلاتها في السجون.

كانت معاناة إبراهيم عزت وإخوانه في السجون مبعثًا لتفجر شاعريته الفياضة، والتي ارتقت إلى مستوى فني متميز في لغته وأسلوبه وتصويره وخياله وتعبيره عن المسألة تعبيرًا فنيًا راقياً، لا ينزل به إلى مستوى العديد من شعراء الحركة الإسلامية أو الوطنية الذي تعلق فيه - في جانب منه - النبوة العالية، والتي يمكن أن نسميها بالخطابية، والتي تزحج ما يقولونه من نطاق الشعر، إلى نطاقات أخرى بعيدة عنه.

شعره:

وشعر إبراهيم عزت من الشعر الرائق المتدفق، الذي تناسب فيه الكلمات أحاسيس، والأبيات مشاعر، والحروف صورًا، وتتخلله التجربة والمعاناة كما تتخلل الروح الجسد، لا تستطيع أن تفصل فيه الكلمة عن الفكرة، أو الفكرة عن العاطفة؛

(1) شاعر وباحث مصري في الدراسات الأدبية.

لأنه مزيج من كل هذا، نفث فيه الشاعر من روحه، وسقاه من قطرات نفسه التي
اعتصرتها المأساة:

يقول:

على مشارفٍ تظل ألف يوم / ونحن نرتدي الرضا / ونصنع ابتسامنا من ذكره /
ونرقب الحياة من بعيد / في جزيرةٍ ببحره / تفتحت قلوبنا على نوافذ الخلود / تنفست
زَفْرَاتِنَا في واحة السجود / الكف حينما يصيبها الضنى / تمدد بالرحيق حين تعصر
اليدان / صرخة على القيود / والعين حينما يشدها الشرود / تردها عينان / عائدتان
من حدائق الصمود.

الرضا بما قسمه الله من معاناة والصمود في المحنة مقومان من مقومات الشاعر
وأصدقائه في هذه المحنة، يزيدهم صبراً وعناداً لاحتمال المأساة.

ويمتعتنا الشاعر بصورة هذا الرضا الذي شمل كل حياتهم، فهم يرتدون وكأنه
ثياب، ويصنعون منه ابتسامهم وكأنه مادة حلوة المذاق تجلب الابتسام، وهو بحر
واسع ينتظرون أن تطل منه الحياة الحقيقية التي يفتقدونها، وهي الحرية والانطلاق.

وفي هذا الموقف الروحي السامي تفتتح القلوب على نوافذ الخلود، فترى ما لا
يراه الآخرون، وتتنفس الزفرات في واحة السجود؛ لأنها تكون في جنة الله بالحياة
الدنيا؛ الصلاة!

وحينما يتسرب إليهم شيء من الضنى أو الشرود في المصير القاتم يجدون من
حالمهم ما يرجع بهم إلى جادة الطريق. الذي لم يكمل الشاعر من الهتاف الدائم فيه.

الله أكبر.. بسم الله مجريها

الله أكبر بالتقوى سنرسيها

الله أكبر.. قولوها بلا وجل

وحققوا القلب من مغزى معانيها

بها ستعلو على أفق الزمان لنا

راياتٌ عزّ نسينا كيف نفديها

بها سُتَبَعَتْ أَعْجَادُ مَبْعَثَرَةٍ

في التيه.. حتى يرد الـركبَ حاديها

أدوات شعره:

وتتسرب الأدوات الحديثة التي ميزت شعر الستينيات من تقنيات شعرية - استخدمت بكثرة وما يزال لها رونقها - تتسرب في شعر إبراهيم عزت بشكل فني متميز، لا يظهر فيه عناء صنعة، أو جهد كلفة، ومن هذه التقنيات تقنية المفارقة التصويرية، حيث يستدعي الشاعر أحداثاً من التراث، أو نماذج إنسانية يسقط عليها ملامح الواقع المعيش؛ مبرزاً التناقضات التي كان من المفترض أن تتوافق. ومن ذلك ما قاله في قصيدة زيارة يخاطب صغيرته قائلاً:

وحيثما نرد يا صغيرتي لدارنا / وتسألين عن هديتك / ستسمعين يا أميرتي /
حكاية «الشاطر حسن» / مضى ليقهر الغيلان في المدينة الخضراء / وحيثما التقى
بالأعرج الحفود هده / بطعنة من خنجره / واستخلص الحساء / روى حقول قمحنا
بدمعه / وجاد بالدماء / ستعرفين قصة الحمامة البيضاء / وقصة الطيور والغناء /
وقصة الغراب والخراب.. / والأسود والذئاب والكلاب / لسوف تعرفين أن اسمك
الحبيب / بسمه في ألف قلب / يا بسمه تحب!

هنا استدعى الشاعر حكاية الشاطر حسن - القصة الشعبية التي تُحكى للأطفال - استدعاها بملاحمها الخيرة الطيبة التي تحارب الشر، والشاطر حسن ما هو إلا الشاعر إبراهيم عزت الذي تعرض لما تعرض له بسبب محاربتة للغيلان في المدينة الخضراء التي استولوا عليها آملاً في تحريرها. ولا يخفى الإسقاط السياسي في: الغيلان، المدينة، الخضراء، الحساء.

ويعن الشاعر في إنشاء معادلات للمفارقة السابقة بقصص سيحكيها لصغيرته لا تخلو كلها من الإسقاطات التي تصور حال الشاعر وأصدقائه، مع من سلبيه حريته، وسلبوا شعبه أحلامه وآماله، فيعدها أنها ستعرف « قصة الحمامة البيضاء، وقصة الطيور والغناء » وهي كلها رموز للسلام والأمان والحرية والانطلاق يقابلها

«قصة الغراب والخراب والأسود والذئب والكلاب» وهي كلها رموز للدمار والفقر والقسوة والقهر والاحتياط والنهب.

وكل هذه المفارقات تعمق المعنى، وتبرز ملامح الصورة، وتجسد المشاعر وتقيم التجربة كائنًا حيًّا دوننا ثرثرة أو صراخ، فهي أشبه بالبحر العميق الذي لا تسمع لأواجه صوتًا، لكنها تجرف ما يعترضها بقوة.

شاعر الدعوة.. الوطن.. الحرية:

لا نعرف لإبراهيم عزت سوى ديوان واحد طبع في بيروت عام 1970 بعنوان: «الله أكبر»، وأنشد شباب الحركة الإسلامية العديد من قصائد هذا الديوان، ومن أبرزها ما غناه المنشد السوري أبو مازن، والديوان يتناول قضايا الدعوة والوطن والحرية، والحرية بالذات هي قضية كل إنسان لا سيما الشعراء، خاصة من كان منهم مثل إبراهيم عزت يحمل من المبادئ والهموم ما يفرض عليه أن يناضل من أجلها.

وبعد قراءة ديوان إبراهيم عزت مرات ومرات يمكننا القول باطمئنان إنه شاعر متميز، وإن غلبت الدعوة على مجهوده ونشاطه، فقد كان ما وصلنا من شعره من ذلك الصنف من الشعراء الذين يعبرون عن تجربة حقيقية اصطلوا بويلاتها، فجاء شعره صادقًا في تعبيره عن واقعه، صادقًا في أدائه الفني، لا يعمد - في أكثره - إلى الثرثرة التي نراها لدى الكثيرين من شعراء الأيديولوجيا؛ سواء من كان منهم ينتمي إلى الحركة الإسلامية، أو الحركات القومية، أو غيرها.

نماذج تحليلية من شعره:

كانت لمعاناة إبراهيم عزت في المعتقل - الذي لبث فيه بضع سنين - أثرها في تجربته الشعرية؛ لذلك جاءت أكثر قصائد ديوانه تعبيرًا عن هذه المأساة في صورها المتعددة، سواء معاناته الشخصية أم معاناة إخوانه من شباب الحركة الإسلامية، أو معاناة الوطن ذاته؛ لأن هذا الوطن سجين هو الآخر تحت قهر أولئك الجبابرة. يقول إبراهيم عزت في قصيدة بعنوان: حبيبي بلادي:

حبيبي / قد كنت أصنع الكلام من دمي / وكنت أعزف النشيد هامسًا / لعله
إلى الفؤاد ينتمي / وكنت أكتب الحروف واحدًا فواحدًا / لتقرئي، لتفهمي .

و كنت يا حبيبي وكنت / والآن يا حبيبي / لن أكمل الحديث / وإن بدا مشوقًا
/ فليس ما أريده إثارة الطرب / أو أن تحركي الشفاه من دلائل العجب / ولن أتمَّ يا
حبيبي النغم / فقد رأيتُ ما يجرُّمُ النشيد ألف عام / فصرت كلما بدأتُ في الغناء /
أجهشتُ بالبكاء / لن أمسك القلم / فالرعدة التي سرت في قلبي المنهوك / أصابت
المواقع الخضراء بالعمق / فلم تعد تجيد غير نبضة الألم / لن أكمل الحديث يا حبيبي /
فشمعتي في ليلة الجفاء أطفئت / وأكذب الأصوات في هواك قد علت / وقصة الكلام
كلها / قد انتهت .

أي حب هذا الذي حملة الشاعر لهذا الوطن؟! لقد كان يصنع الكلام من دمه،
ويصوغ الحروف من قطرات نفسه وروحه من أجل هذا الوطن الحبيب، لكن يحدث
ما يمنع أهazيج الشاعر وأغاريد حيا حيث يرى ما يجرم الغناء، وما هذا الغناء إلا الحرية
الطليقة التي كان ينعم بها الشاعر مع هذا الوطن، فأصبح هذا الغناء محرماً بقدرة
خارجة عن إرادة الشاعر والوطن، إنها قدرة العسكر الذين يمتلكون السلاح، أما
الشاعر فلا يمتلك إلا أشعاره. وكلما عاود أن يستجمع قواه ومشاعره ليبدأ الغناء من
جديد إلا ويغلبه البكاء، فالمواقع الخضراء أصابها العمق، والشمعة التي تضيء أطفئت
في ليلة الجفاء، لقد تلاشى النور لتحل محله الظلمة، وتراجع الحق ليحتل مكانه الزيف
الذي يدعي حب الوطن، والوطن منه بريء:

حبيبي / وكلهم بالأمس كان في الهوى متيما / حبيبي / وأين هم؟! / في
ليلك الحزين / وأين يا حبيبي الأمير زائراً؟ / في الموكب الكبير / يملأ الطريق
بالعطور والزهور / يختال فوق صهوة الجواد / وأين يا حبيبي غناء شاعرك؟
/ قد سال بحر من منعماً من بسمتك / وأين يا حبيبي يمين عاشق / أتاك يسبق
الرياح كي يُرى بجانبك .

ويسأل الشاعر عن الأمير الحلم والأمل الزائر في موكب كبير يملأ الطريق
بالعطور والزهور، ويختال فوق صهوة الجواد، ويسأل كذلك عن غناء الشاعر الذي
تلاشى بسبب القهر، ويسأل عن عاشق أو يمين عاشق أقسم بحب الوطن، كل هذه
المفردات تكوّن صورة حاملة يتمناها الشاعر لوطنه؛ لكن انقلبت هذه الصورة المشرقة
إلى النقيض، فكان الخداع والبكاء:

خُذعت يا حبيتي / بكت بكفك الجراح / وارتوت بدمعك السفوح والجمال / ناحت
رماها / في ليلة الحداد حين زارها دمك / شكت سهوها / لوطأة البغي يستبيح
حرمتك / نسيت في موائد الثناء / سيدًا تعشق الفداء / الموت عنده حياة / أحب دائمًا
أن ترفع الجباه / وكفة الكلام عنده نصف كفة العمل / أحب أن يراك مسجداً /
مقدساً ثراه / لا ينال تربه / نسيته مقيداً / شغلت عنه بالبريق / من سيطفئ الحريق
غيره / ومن سيمسح الجراح إن جهلت سرّه.

نحن إذن أمام صورتين متقابلتين، أو قيمتين متناقضتين: قيمة الزيف، وما
يملكه من أدوات القهر والإرهاب والبطش والجبروت، وقيمة الصدق، وما يملكه
من حب فياض، ومشاعر مخلصّة.

وإذا جاز لنا أن نبحث عن معادلات هذه الصور في الواقع فإننا نقول: إن
الثورة⁽¹⁾ بشرّت بآمال عريضة تفاعل الناس بها خيرًا، لكن هذه الآمال لم تلبث أن
تلاشت، بعدما انحرفت الثورة عن أهدافها، وتحكم في الوطن بعض المتفعين،
فأذاقوه من الويلات الكثير، وقد صدق الناس كثيرًا من زيف هؤلاء، وهو ما يمكن
أن نفهمه من قول الشاعر:

خُذعت يا حبيتي / بكت بكفك الجراح.....

نسيته في موائد الثناء / سيدًا تعشق الفداء

(1) يقصد حركة الضباط 23 يوليو 1952 في مصر.

وفي الجانب الآخر من المعادلة، أو الوجه الآخر من الصورة يرى الشاعر نفسه - وإخوانه من أفراد الحركة الإسلامية - محيين مخلصين لهذا الوطن، لكنه تنكر لهم أو تنكر حاكمه لهم، ورغم ذلك فإن الشاعر لا يستسلم لهذه الأهوال؛ بل يقابلها بالرجاء، والأمل الذي يراه في الأفق مطالاً باسمًا:

حببتي / ولم تزل في أفقنا بقيَّة من الرجاء / حطَّمي قيوده / لتحتمي بسرِّه /
لتصنعي حياتنا به / لتسمعي دعاءه.. بكاءه / يستمطر السماء زادهُ / ونَصْرَهُ /
ويستغيث ربَّه / فحطَّمي قيوده.

اليوم عيد:

وفي قصيدة أخرى بعنوان « اليوم عيد » يقيم الشاعر مفارقتَه بين صورتين متقابلتين، تجعلنا نتعاطف معه، ونشاركه أحزانه وآلامه، فالمناسبة المشتركة بين الصورتين هي يوم العيد، وهو يوم الفرحة والرحمة والود والتسامح والسلام والأمان، وكل هذه المعاني الجميلة المشرقة التي عاشها الشاعر في يوم من الأيام، يحكيها لنا في الصورة الأولى، فيما يشبه الارتداد أو الـ « فلاش باك »:

اليوم عيد / قد عشت فيه ألف قصة حببية السمات / أردد الأذان في البكور /
أراقب الصغار يمرحون في الطريق كالزهور.

وهذه تحية الصباح / وهذه ابتسامة الصديق للصديق / والسلام / يبسط
اليدين يرسل الندى / ويملاً الحياة بالأمان / وخضرة الزروع غضة الجنى /
تجمعت أمام مسجد الإمام / وأطيب الثمار تطلب الكبار / هدية يجبها الصغار /
تجبها صغيري / ما أطيب الزمان يا أحبتي / إن عانق الأمان / زماننا ربيعه
الأمان.

في هذه اللوحة يستعرض الشاعر ذكريات العيد، التي كان يحياها ويعايشها؛ حيث كان الأطفال يمرحون كالزهور، ويتبادل الأصدقاء الابتسام والسلام، الذي يبسط يديه، مرسلًا الندى، ويملاً الحياة بالأمان. وخضرة الزروع التي تجمعت أمام

مسجد الإمام، كل هذه الجزئيات المختلفة تكوّن اللوحة الأولى من المفارقة، والتي تتضمن لنرى الأمان مجسداً في هذا اليوم، يوم العيد.

لكن الوضع الحقيقي في حاضر الشاعر على خلاف هذه اللوحة الجميلة الوداعة؛

لأن:

الكل عائد بفرحة تطل مشرقة / من الشفاه والعيون / ودارنا سنتنظر / صغيرتي
سنتنظر / والشرفة التي على الطريق تسمع الصدور.. / تعزف الأشواق تعصر
الأسى / هشام لن ينام / قد كان نومه على ذراع والده / نهاذ لن تذوق زادها /
لأنها تعودت أن تبدأ الطعام من يد الأسير / شريكة الأسى بدا جناحها الكسير
/ تحبّي الدموع عن صغارها / وحينما يلفها السكون / سترتدي الصقيع / كي
تقدم الحياة للرضيع.

في هذه اللوحة لا نشعر بالأمان الذي ظلل اللوحة الأولى، حيث يسيطر على هذه اللوحة عنصر الفقد والبعد، وهو ما ينعكس على دار الشاعر⁽¹⁾ وصغاره، الذين لن يناموا ترقباً لعودة أبيهم الذي غيَّبته الأسوار، وينعكس كذلك على شرفة منزله التي تراقب السائرين على الطريق انتظاراً لعودته، ولا تفتأ تعزف الأشواق وتعصر الأسى. وعلى الرغم من قسوة هذه المفارقة بلوحيتها المتقابلتين إلا أن الشاعر يفتش في ذاته عما يجدد الأمل لديه، فيجد حب أهله وأولاده في قلبه، فيصر على أنه: ما زال يومنا ويومهم / لأننا نحبهم / اليوم عيد.

وقد لا تسمح هذه العجالة بالحديث عن شعر إبراهيم عزت بالتفصيل الذي يستحقه، لكن يمكننا أن نقول إنه بحق شاعر متميز، امتلك أدوات الشعر، ووظفها بمهارة، ما كان منها من أصيل تراثنا أو من حديث ثقافتنا، وكانت تجاربه الشعرية

(1) لم يكن إبراهيم عزت متزوجاً أثناء اعتقاله وكتابة هذه القصيدة، ولكنه عبر تعبيراً جيداً عن شعور ربة

البيت والأبناء عند فقد الزوج الحبيب والأب الراعي.

نابعة من معاناة حقيقية أكسبت أشعاره الصديقين: الصدق الفني، والصدق
الواقعي⁽¹⁾.

(1) أجزاء من مقالات نشرت في مجلة المجتمع - الكويت - العدد 1560 - 2003 / 7 / 19 - ص 51، 50،
وموقع إسلام أون لاين على شبكة المعلومات (الإنترنت) بتاريخ 2003 / 11 / 29 .

مع إبراهيم عزت وطيف الملحمة

حوار مع أبي مازن منشد الصحوة (1)

سَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا.. بِلا تَمَنٍ
إِنْ لَمْ نُقَدِّمْ دِمَانَا كَيْ نُزَكِّيَهَا
إِنَّا عَلَى عَهْدِنَا لَللَّهِ نَحْفَظُهُ
حَتَّى نُقَدِّمَ أَرْوَاحًا.. وَنَشْرِبَهَا
لَقَدْ أَتَى أَمْرُ رَبِّي لَمْ يَرَدِّ لَهُ
إِنِّي سَأَقْفَهُرُ أَغْدَائِي وَأَفْنِيهَا (2)

ابتسم المهندس رضوان « أبو مازن » وأنا أردد هذه الأبيات، وأقلّب ما بين أيدينا من كُتُبِ الشعر ودواوينه..

قلت له: الشاعر الذي سنتحدث عنه اليوم تشبه ظروف علاقته بك كثيرًا ظروف علاقتي بك؛ فقد عرّفْتُكَ عن بعد من خلال إنشادك، كما عرفك كلُّ الناس، وأحببتك كما أحبك كلُّ الناس حتى التقينا...

وأنت عرفت صاحب هذه الأبيات من خلال أشعاره.. وأحبيته.

قال لي في أسمى ممزوج بسعادة:

- والفرق أني لَمْ أَلْتَقِ بِهِ.

ثم تَقَدَّمَ إلى الأمام في جِلْسَتِهِ، وقال لي وعيناه تلمعان بكل معاني الحب:

- تصوّر: لَمْ أكن أعرف أن إبراهيم عزت شيخ وخطيب في مسجد، وأنه بهذه الشهرة الواسعة. ثم قلب بين كفيه تلك الشرائط المسجلة لبعض خطب الشيخ التي أهديتها له وقال:

(1) تم الحوار في بيته في مدينة نصر - القاهرة - وكان الحوار الرابع من حواراتي معه، والتي نشرتها مع نصوص قصائده المغناة في الشرائط العشرة له، في كتابي (أبو مازن صوت الصحوة).

(2) قصيدة (الله أكبر) للشيخ إبراهيم عزت - الشريط السابع.

- وهذه هي المرة الأولى التي سأستمع فيها إلى خطبة له!

لم أملك إلا أن أنظر له تلك النظرة التي ترجمتها عيناى إلى ذلك العَجَب المسيطر على نفسي، عندما أسمع أي مفارقة مِنْ مفارقات حياة ذلك المنشِد الأسطورة أبي مازن، وقلت:

- سبحان الله!

وبعد سكتة لطيفة قلت: أريد منك أن تحكي لي عن أول لقاء لك مع شعر إبراهيم عزت.

قال: كان ذلك بعد مدة مِنْ استغراقي في الإنشاد.

قلت له مقاطعاً في رِقَّة:

- أول قصيدة تنشدها لإبراهيم عزت كانت في الشريط الخامس: « اليوم عيد » فأشار برأسه دليلاً على الموافقة، ثم أكمل:

- جاءني أحد الأصدقاء في المسجد - وكان أكبر مني سنّاً - وأعطاني ديوان شعر عنوانه: « الله أكبر » للشاعر إبراهيم عزت سليمان، وقال لي: ما رأيك في هذا الشاعر؟ إنني لم أقرأ لشاعر مثله، فأخذت منه الديوان، وبدأت أقرأ فيه.

لمعت عينا أبي مازن بشدة وهو ينظر إليّ، وأكمل قائلاً:

- الحقيقة يا دكتور أنني أصابتنى شبه عُقْدَة اسمها « إبراهيم عزت » كما أخبرتك مِنْ ذي قبل، وأصبح من الصعب عليّ اختيار قصيدة للغناء مِنْ غير شعر إبراهيم عزت بعدما عرفته وتذوقتُ شعره!

لم أكن أعرفه شخصياً، وحتى وقت قريب لم أكن أعرفه، ولكنه كان يقول: ما لو كنت شاعراً لقلته.

قلت له وأنا أقلب في مجموعة أناشيد أبي مازن:

- الحقيقة أن بعض القصائد التي غنيتها لإبراهيم عزت تعتبر علامات مميزة في مجموعة أناشيدك؛ فقصائد « اليوم عيد »، و« ملحمة الدعوة »، و« حبيبتى بلادي » مِنْ

شعر التفعيلة، واستطعت أنت باللحن المميز أن تجعلها سهلة التداول كأغنية، بل وتفجّر طاقات الموسيقى الموجودة بها.

قال: الحقيقة كانت هناك مشكلة في هذه القصائد، وهي بعض المعاني التي تحتاج إلى شرح، فاجتهدت بعض الشيء في ترتيب الأبيات.

قلت له مبتسماً: اجتهادك في بعض النصوص واضح، وليس هذا مع إبراهيم عزت فقط؛ فالكثير من الأناشيد مقتطفات من القصائد الكاملة، ولقد لاحظت أن توفيق الله كان معك في اختيارك.

قال: الحمد لله. ثم أكمل ...

- في « ملحمة الدعوة » و « اليوم عيد » احتجنا إلى مقدّمة نثرية طويلة تشرح ملامح القصيدة، ثم كانت القصيدة كما جاءت في الديوان إلا سطرًا أو سطرين لأسباب فنية. وفي قصيدة « حبيبي بلادي » جعلت بدلاً من المقدمة النثرية جزءاً من داخل القصيدة نفسها... ويبدأ الإنشاد من بداية القصيدة كما جاءت في الديوان:

قلت له: ألاحظ أنك كنت تغني لإبراهيم عزت بدون تغيير كبير.. فقط عناوين بعض القصائد؛ مثل « ملحمة الدعوة » اسمها في الديوان « وبعد »، وقصيدة « سبحانك ربي » التي يقول في مطلعها:

أَسْبَحُ رَبِّي مِثْلَ الطُّيُورِ وَأَهْتَفُ بِاسْمِ إِلَهِي كَبِيرِ
أَرَى كِبْرِيَاءَ بِلَوْنِ السَّمَاءِ وَوَمَضِ النَّجُومِ وَبُعْدِ الْمَسِيرِ

اسمها في الديوان « أَسْبَحُ ربي ».. وقصيدة « ربّاه »

ببَابِكَ لَنْ أَغَادِرَهُ وَلَنْ أَسْمَعِيَ إِلَى غَيْرِكَ
سَأَنْسِجُ بِالرَّضَائِي وَأَشْرَفُ أَنْنِي عِنْدَكَ

اسمها في الديوان « بابك ».

وقصيدة « إلى الرسول القدوة » التي يقول في مطلعها:

أَسْفَرَ الْفَجْرُ وَلَا حَتَّ مِنْ ثَنَائِهِ الْبَشَائِرِ
وَأَتَيْنَا يَا مُحَمَّدَ وَجَنَاحِ الشُّوقِ طَائِرِ

عنوانها في الديوان « يا رسول الله جئنا »

وقصيدة « يا سيد الخلق » وهي آخر ما غنيت في الشريط التاسع والأخير،

ومطلعها:

يَا رَبَّ أَحْمَدَ: جُدْ بِالْمَدْحِ مَتَّصِلًا
لِسَيِّدِ الْخَلْقِ.. كَيْ تَسْمُو قَوَائِمَنَا
يَا أَكْرَمَ الرِّسْلِ وَجُدْ فِي الْقُلُوبِ سَرَى
فَاسْتَرْسَلَ الشُّوقُ يَعْصِرُنَا وَيَطْوِينَنَا
اسمها في الديوان « يوم الحبيب ».

فهذه خمس قصائد غيّرت عناوينها؛ أما البقية « اليوم عيد »،
و« الله أكبر » و« مصعب بن عمير » و« حبيبتى بلادي » فعناوينها في الديوان كما هي.

ابتسم لي وقال: حتى الديوان الذي جاءني بصورة منه بعض الأخوة قد غيروا
عنوانه من « الله أكبر » إلى « حبيبتى بلادي ».

قلت له: العمل جارٍ لإخراج الديوان في ثوب جيد قشيب، مع مقدمة عن
حياته، وتعليق على مناسبات بعض قصائده (1).

قال لي: تصوّر؛ أنا لا أعرف الكثير عن الشيخ إبراهيم عزت؛ متى ولد؟ أين كان
يعيش؟ ماذا كان يعمل؟

قلت له وأنا أعطيه كتابًا صغيرًا: ستجد معلومات كافية في هذا الكتاب، وهو
الكتاب الوحيد الذي خرج عنه، (الشيخ إبراهيم عزت: حياته وشعره). (2)

(1) وهذا الكتاب الذي بين يديك قارئى الكريم هو الوفاء بذلك الوعد.

(2) للدكتور حسن عبد السلام.

أخذ مني الكتاب مُمتنًا، وبدأ يتصفح في هُفَّة، فابتسمت، وقلت له: أسرد لك الآن شيئًا من حياته كما عرفناها وعشناها معه، ووَرَدَ بعضها في هذا الكتاب:

وبدأت أحكي له طرفًا من حياة الشيخ، التي كان يسمعا لأول مرة منذ مولده حتى صعدت روحه إلى بارئها، وله من العمر ثلاثة وأربعون عامًا، ومواراته الثرى في مكة المكرمة بعد أن صلى عليه آلاف المسلمين في الحرم الشريف، مكفَّنًا في رداء إحرامه.

وقد استجاب الله دعاءه الذي كان يردده كثيرًا « اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتة في بلد حبيبك ﷺ ».

رأيت دمعات تترقق في عيني أبي مازن، وكأنها تعانق تلك الدموع التي سألت من عيني، وأنا أذكر ذلك الرجل الذي تعلمنا منه كيف يطابق قول الرجل فعله.

قال أبو مازن بصوت متهدج: رحمه الله ... كم أحببت شعره، والآن أحببت سيرته وشخصه حقًا؛ إن هذا الشعر لا يخرج إلا من رجل عاشه حقَّ المعيشة.

وأردت أن أعود بالحديث إلى بعض أفراحه، فقلت له محاولا الابتسام:

- وديوان الشيخ إبراهيم عزت يحوي ثمانية وعشرين قصيدة، وقد أنشدت له تسع قصائد في شرائطك التسعة، ووعدت بإنشاد الديوان كله⁽¹⁾.

ابتسم وقال: أضفُ ثلاث قصائد في الشريط الجديد، وأسأل الله أن يوفقني لإتمام الباقي.

ثم قال لي مداعبًا: قلت لك: إن عندي عقدة إبراهيم عزت، فلا أستطيع الإنشاد لأحد غيره، بعد أن قرأت شعره.

(1) كان من تخطيطي لهذا الكتاب أن أضع نصوص القصائد كما غناها (أبو مازن) ليسهل مقارنتها بالقصائد الأصلية في الديوان ولنرى مدى تصرف أبو مازن فيها إلا أنني رأيت أن موقعها هو كتاب (أبو مازن - صوت الصحوة) فراجعتها هناك في طبعته الجديدة..

قلت له: إن شاء الله نجد الكثير من القصائد التي تشدك لإنشادها أو تلحينها؛
ليعود إلينا أبو مازن منشداً وملحنًا، أو حتى يُختار الكلمات ليظل العطاء الذي جعلك
بحقّ منشداً الصحوّة الإسلاميّة، وحادي قافلته منذ بدأت حتى اليوم إن شاء الله.

ابتسم وقال: هل انتهت الحوارات؟

قلت له وأنا أصفحه: ولن تنتهي اللقاءات، ولن ينتهي العطاء، وأنا في انتظار
الشريط العاشر الذي انتظرناه خمسة وعشرين عامًا⁽¹⁾.

القاهرة - أغسطس 2005 م

* * *

(1) صدر الشريط العاشر عام 2004 بإنشاد أبي مازن وتلحينه محتويًا خمس قصائد منها قصيدة:
(صغبرتي) و(أزفت) للشيخ إبراهيم عزت، حيث غنى القصيدتين كاملتين ولم يغير في بنائهما شيئاً ولم
يحذف أي شيء.